اندروفين

اندروفين
قصص
محمد شوقي
(c) دار ميريت
٣٢ شارع صبري أبوعلم، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.org
darmerit98@gmail.com
الغلاف: ؟؟؟؟؟؟؟
المدير العام: **محمد هاشم**
رقم الإيداع: ؟؟؟؟؟؟/٢٠١٩
الترقيم الدولي: **978-977-351-???-?**

محمد شوقي

اندروفين

ميريت
القاهرة ٢٠١٩

إهداء

إلى أبى (رحمة الله عليه)، ومكتبته العامرة بآلاف الكتب، وهي الميراث الوحيد والحقيقي، الذى أورثته لنا، عظم الله روحك!
إلى أمي أطال الله عمرها.
إلى أخي المهندس والصحفي والسياسي إيهاب شوقي، حيث تعلمت أن أفعل كل ما يرد على البال دون التفكر في العواقب.
إلى أختي الفنانة والكاتبة نهلة شوقي، حيث تعرف الأشياء بضدها، ويدرك المرء كم هو صغير وتافه بالقياس إليكِ.
للطبيب والأديب الكبير د. أيمن الجندى، الذي أتاح أمامي الفرصة، ونشر لي عدة قصص في عموده الشهير (كثير من الحب) بصحيفة المصري اليوم.
وأخيرًا إهداء لا بد منه لمن تعلمت من سيرته كيف تكون الكرامة، وكيف تكسب حب الناس، ولو طال بك الأمد، فخامة الرئيس جمال عبد الناصر.

مقدمة

لن أكون متحذلقا لأزعم بأننى أقدم لكم قطعة من الأدب الراقى، أو مجموعة قصصية هادفة، ولن أرتدى رباط عنق على حلة سوداء، وأتلبس لبوس الحكمة، وأقول لكم إننى قررت إيداع عصارة عقلى في بنك الأداب الرشيدة ! كلا لن أفعل شيئا من ذلك، ولن أفعله - إن كتب الله لى أن أكتب ثانية! أو كتب لى عمرا جديدا أحياه في هذا العصر البائس!

نحيا جميعا فترة انتقالية عاتية يمر بها الوطن والعالم، حيث يتقيأ الكون بعض النفايات، التى عاشت بعض عمرها في عصور لحقت ببعض أدوات القرن الفائت، ولحقت بقطار التكنولوجيا، وصارت مأساتها هى مقارنة حاضرها التعس بماضيها الأقل تعاسة نسبيا.

حتما سيتمخض هذا القرن عن استقرار نسبى في منتصفه عندما ترسو سفينته عند مرسى التكنولوجيا الرقمية المخيف، وعندما يتسلم الزمام الأجيال الصغيرة، والتى نسخر منها، ومن سراويلها الساقطة والمتهتكة، ومن ذقونهم وشعورهم المشعثة، عندما يحدث ذلك سيسفر القرن الحادى والعشرين عن وجهه الحقيقى، ويشتد عوده، وينطلق في مساره المستقيم، متخلصا من مخاضه الأليم ومن نفاياته التاريخية المتمثلة، فيمن هم فوق الثلاثين ربيعا!

من العجيب حقا أن يكتب المرء مجموعته القصصية الأولى، ولكل منا مجموعته القصصية، وبداخل كل منا أوجاع وأفراح وأمنيات ورغبات مشروعة وغير مشروعة، وكل ذلك يختلط

بالسلوك، فمن سيطر على باطنه، وبدا متماسكا بدا للقوم فردا سويا، ومن باح بسره وفاض ماعونه بدا للقوم مجنونا!
والسؤال المهم: لماذا هو هول؟ ولماذا هو أخرس؟
والإجابة ببساطة أنه هول بالفعل قد نعانيه الآن وقد لا يشعر به البعض، وهو أخرس كمريض الاكتئاب، الذى لا يحسن التعبير عن معاناته، أو قد لا يجرؤ على البوح بمكنون صدره لأنه يعلم مسبقا أن لا فائدة!
وأن كل شيء باطل.
باطل بالتأكيد!
أما لماذا سمينا المجموعة (اندورفين)؟
فعندما تقرأ ياعزيزى القصة المعنونة بهذا الاسم ستدرك مقصدى!
والله من وراء القصد.

د. محمد شوقى مهدي
القاهرة ٢٠١٨.

اضرب سيدي ماذا تنتظر؟
وكل جموعك بندائك تأتمر
فإن كانت المنايا سيف القدر
فعلام خوفك من عدو محتضر؟!

نهاية

- إنهم يقتربون.
دوى الصوت في أذنيه، وارتفعت دقات قلبه بشدة، وقام من فوره، وأخذ بتلابيب الرجل هاتفا بعصبية:
ماذا تقول أيها الأحمق، لا أحد يجرؤ على الاقتراب من معسكرنا المحصن.
كاد الرجل يبكى، وهو يحاول تخليص ملابسه من أيدى قائده المخيف، صارخا:
جيش كثيف العدد والعتاد اخترق خط دفاعنا الأول، وأردى فرقتنا الأمامية، وهم الآن على مرمى البصر.
ترك الرجل ذاهلا، وأخذ يدور حول نفسه، وتساءل في أعماقه:
كيف عرفوا الطريق؟! لقد أفنى عمره في بناء كل تلك الأسوار.
بذل كل ما يملك في تجنيد كل هؤلاء البشر، لم يترك ثغرة يمكن أن يمر منها العدو، نشر العيون في كل مكان تترصد الأخبار، كان يسمع كل يوم نبأ سقوط بلدان مجاورة، وفناء أهلها، ولكنه لم يتصور أن يكون في القائمة المنتقاة للفناء..
مستحيل! مستحيل! هذا يحدث للآخرين فقط، ولكن ليس هو ! ليس هو!
: الكارثة يا سيدى أننا لم نمر بظروف مشابهة، لم نمارس القتال أبدا، هى معركة واحدة ونتيجتها محسومة!
كان هذا هو صوت نائبه، فالتفت إليه كأنه يراه لأول مرة! يا الله! لماذا لم يقل له ذلك من قبل؟! أم أنه قاله في أزمنة سابقة، ولكنه لم يأخذ كلامه مأخذ الجد، وضرب به عرض الحائط.

: وما فائدة الكلام الآن؟
قالها في مرارة، فبدت القسوة على وجه نائبه، قائلا له، وهو يلوح بأصبعه في وجهه،
: أنذرتك كثيرا فلم تتعظ، ولم تكن تلبى سوى نداء نفسك الأمارة بالسوء!
كوّر قبضتيه، وكاد يهشم رأسه، ولكن بدا له الفعل مبتذلا، غاية في الحماقة، خاصة في هذا التوقيت الحرج.
: اقتله يا سيدى ولا تدع له فرصة الشماتة.
كان هذا صوت نائبه الثانى، الذى أردف قائلا:
الوقت الباقى لهم للوصول إلينا قليل للغاية، لا تستسلم لهم أبدا وقاوم، فربما يكتب لنا النصر!
حدق فيه بسخرية وأدار ظهره له، وغرق في أفكار سوداء، بينما نائباه يقتتلان قتالا مريرا، وكل منهم ينحو باللائمة على الآخر، فيما آل إليه الأمر.
كانت أصوات القتال تدوى بالخارج وصرخات المقتولين تصم أذنيه، وبدا له أنه وقع ضحية قوة قاهرة محترفة لا قلب لها، وأن الانتصار عليها خرافة ومقاومتها بلاهة!
وفجأة برقت عيناه، وكأنه تذكر شيئا، ودخل إلى قدس الأقداس وفتح خزانته، وتناول منها كتابا قديما علاه التراب، نفض عنه ترابه في وجل، وبدا له أن الحل يكمن داخله، وبينما هو يتصفح الكتاب إذا بنائبه الأول يدخل إليه، ويأخذ منه الكتاب، قائلا:
: عنك يا سيدى.
وأشار لصفحة معينة، خططت بعض سطورها، وقربها للقائد قائلا:

هذا هو الحل سيدى، وهو ليس بحل أيضا!
- ماذا تقصد أيها الحقير!
: قضى الأمر سيدى ! ما تفكر فيه فات أوانه، وكان يجب عمله قبل أن تنشئ كل تلك التحصينات وتشترى كل هؤلاء الرجال!
- ماوجدت منك إلا اليأس والخراب!
: الآن فقط تقول ذلك يا سيدى، ولكنك كنت دوما لا تصغي إلي، لا أشك لحظة واحدة أنك كنت لا تدرى بكل تلك الأمور، أو ما ينبغى عليك فعله لتتجنب تلك النهاية الشنيعة!
- وماذا على أن أفعل الآن؟
: القتال انتحار والاستسلام أيضا انتحار!
أطلق "شخرة هائلة"، قائلا:
وما التصرف الأمثل إذن؟!
شد نائبه قامته قائلا:
أولا عليك أن تقوم بقتل نائبك الثانى!
- ليكن، سأقتله شر قتلة علّ ذلك يكون قربانا للعدو، فيترفق بنا!
: ثانيا أن تخرب تحصيناتك بنفسك، وتسرّح قواتك، وتأمرهم بالفرار.
نظر له في غل قائلا:
وبعد ذلك أنتحر!! أنت معهم يا رجل، كيف لم أنتبه لذلك منذ زمن؟!
- هاقد عدنا لتافه الكلام !
قطع عليهم الحديث صوت انفجار هائل بالخارج، فخرج يستطلع الأمر، إلا أنه فوجىء بعدوه يقتحم عليه الأسوار، ويحدق به من كل جانب.

ثقلت قدماه، وجثا على ركبتي،ه وأطلق صرخة هائلة، وظلام كثيف يحيط به من كل جانب

القطيع

عشرات الآلاف من الفئران تتجمع سنويا بأعالى الهضاب المطلة على المحيطات، وتلقى بنفسها من علِ في وصلة انتحار جماعية.
كان يشاهد هذا المنظر الرهيب على قناة (ناشيونال جيوجرافيك)، وانتابته مشاعر شتى بين الذهول تارة والحيرة من ذلك المسلك الغريب، وطاف بعقله خاطر أن تلك الجرذان لا تعلم شيئا عن مصيرها، بل سلوك القطيع هو الذى يحكم كل شىء.
هل هم يدركون أن القفز في المحيط يعنى الموت غرقا؟! هل جرب أحدهم أن يعوم في الماء من قبل؟! يبدو أنهم يسيرون وراء قائد مغيب يعدهم بالجنة الزرقاء، وقد استسلموا له في إذعان تام.
المعرفة إذن هى التى تجعل الانسان يتمايز عن الحيوان والتاريخ أيضا، فالانسان، كما قال الأقدمون، هو حيوان ذو تاريخ حتى ولو كان تاريخا يشوبه الشك وينهشه الضلال وتحوم حوله شبهات التزوير!
طفق يمشى في الشوارع يتأمل وجوه القوم ما بالهم يعبسون ؟ يتعاملون مع الحياة على أنها ثقل جاسم على الصدر يتمنون الخلاص منه ما تركوا موبِقة إلا واقترفوها، يسرقون، يقتلون، يزنون، يكذبون.
أخذ ينقب في كتب التاريخ باحثا عن عقوبة كل تلك الأفعال، التى يقترفها قومه وأصابته الصدمة، إذ رأى مشاهير العالم،

ومن اغترفوا من نهر اللذائذ والشهرة لا يختلف مسلكهم كثيرا عن مسلك الغالبية العظمى من قومه البؤساء.
لا عقوبة لمن طغى ولا مكافأة لمن أحسن.
ترك التاريخ جانبا، وتناول كتب الأديان ودساتيرها المقدسة، فوجدها تلقى بوعود غير مؤكدة وتشير لجنان غير واضحة المعالم ونيران مشكوك في اشتعالها، بل والأدهى أنه وضع يده على متناقضات هائلة في تلك الكتب تشير لبصمة بشرية لا شك فيها.
اشتعلت نيران الشك بين جوانحه، ونظر لأعلى فلم يجد شيئا سوى سكون هائل!
عاد من رحلته تلك إلى قومه، وأخذ يراقبهم بعين جديدة صحت من غفوتها واندمج بينهم وصنع ما يصنعون، وهبت على روحه لأول مرة نسائم ارتياح صافية!

حياة مملة

استيقظ من نومه على صوت مشاجرة حامية بين أولاده، فنظر لهم بمقت، ووضع الوسادة على رأسه اتقاء للأصوات الرفيعة العالية، وسرعان ما ارتفع صوت شخيره عاليا، قبل أن يفتح عينيه في انزعاج استجابة لصوت امرأته تناديه لتستحثه على الاستيقاظ، فنهض في تكاسل وشعر بأن قدميه لا تكادان تحملانه، وتمتم في خفوت:

" ملعون أبو الشغل على العيشة واللى عايشينها!"

ارتدى ملابسه كيفما اتفق، وصفف شعره المتداعى بإهمال، ولم يأبه حتى بتنظيف حذائه، الذى شحب لونه الأسود من فرط التراب المحتشد عليه.

ـ تفطر إيه؟

نظر لامرأته في خواء وقال لها:

سأفطر في المصلحة.

ـ خليك كده ضيع فلوسك وفلوس عيالك على بطنك.

تركها وغادر المنزل. لم يرد افتتاح يومه بالمشاجرات المعتادة. انحشر في المقعد الخلفى للميكروباص المتجه لمقر عمله مرغما على سماع إيقاعات رديئة تنطلق من سماعات السيارة، واكفهر وجهه من الغضب، وهو يستمع لسائق الميكروباص يطلق السباب الفاحش بمعدل ٤٠ سبة في الدقيقة، كلما مرت به سيارة تعوقه عن ممارسة هوايته المفضلة في القيادة الوحشية اللامبالية بأى شيء. نظر لوجه السائق، وأدرك من عينيه

المنطفئتين والسواد المحيط بهما أنه من المدمنين، كعادة معظم العاملين بتلك المهنة الحقيرة.
وصل عمله بسلام، فألقى نظرة كئيبة على مبنى المصلحة، مقر عمله، وما لبث أن صعد إلى مكتبه المتواضع وحيا زملاءه بفتور، ثم طلب من العامل أن يحضر له طعام الإفطار، وتحول مكتبه والمكاتب المجاورة إلى مأدبة طعام تناثرت عليها بقايا الخبز والفول والطعمية وشعر برغبة عارمة في النوم إلا أنه قاوم رغبته مع قدوم أفراد الشعب لقضاء مصالحهم، فنظر لهم بعناد وتكاسل، وأوسعهم تأجيلا ومطالب غير ضرورية، وكلما رأى الغضب في عيونهم كلما زاد بهجة وانتشاء.
ـ أنا سمعت أن المرتب هينزل بدرى الشهر ده.
هكذا قال الموظف الجالس على المكتب المجاور، فرد عليه قائلا:
" يا ريت يا مصطفى لاحسن العملية ضنك ع الآخر"!
نظر مصطفى لدرج مكتبه الممتلئ بالأوراق النقدية نظير تخليص مصالح المواطنين، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، قائلا:
" كلنا تعبانين يا عم محمود الأسعار بتغلى والدنيا والعة".
ـ" ملعون أبودى بلد يا أخى".
حان وقت الانصراف، فعاد لمنزله وتناول طعامه كخرتيت لم يذق شيئا منذ أعوام، حتى صرخت معدته طالبة الرحمة، وتبادل الحديث مع زوجته وأولاده ولم يخرج الحديث عن مطالبات مادية، فشعر بالضجر وصرخ فيهم:
" خلاص انا بالنسبة لكم خزنة فلوس!"

فقالت امرأته بلهجة عدوانية:
"كل البيوت كده... دى مش حاجة جديدة".
غادر المائدة، واستلقى على فراشه، وتمنى ألا يصحو من نومه أبدا.
على العشاء كان يتابع في التليفزيون أخبار المعارك والدمار في العراق وسوريا وليبيا، فتنهدت أمرأته وقالت بلهجة خطيرة حاولت أن تكسبها شيئا من الحكمة:
" الحمد لله إننا مش زى سوريا والعراق".
أطلق زوجها" ظراطا"، ولم يبال، وبعد ساعة ارتدى ملابسه، وترك زوجته تتابع مسلسلا تركيا في انتباه هائل، وخرج من منزله، وقابل نفرا من أصدقائه على المقهى، فاحتسوا ما تيسر من الشاى والقهوة وتسلوا بلعب الطاولة وهم يثرثرون بأحاديث مكررة لو سجلتها لهم لوجدتها متطابقة منذ سنوات مضت وحتى لسنوات مقبلة.
عاد لمنزله، وجد أولاده قد ناموا مبكرا، ونظر لامرأته وشعر بضيق عندما رأى شفتيها وقد خطتهما بأحمر شفاه، وارتدت قميص نوم رآه عليها عشرات المرات، فتحجج بدخول دورة المياه، ثم أخرج من حافظته قرص فياجرا فابتلعه بلا حماس وتعمد الغياب قليلا في الحمام ريثما يبدأ مفعول القرص، ثم طلب من زوجته كوبا من الشاى، ثم أشار لها إشارة تفهمها جيدا، ثم امتطاها بلا حماس.
قرف، ملل، شبع، هكذا ردد لنفسه، ولكن المضطر يركب الصعب، وامرأته صعبة المراس لا تشبع أبدا!

آه لو تعلمين أيتها المرأة أنه لولا تفكيرى في النساء الأخريات أثناء معاشرتك لاعتبرتنى مثل أختك الكبيرة (ميرفت)!!
لم يبال بالاغتسال، فهو لا ينتظم أبدا في الصلاة، وغالبا لا يصلى إلا في شهر رمضان كديدن معظم المصريين.
وما لبث النوم يداعب جفونه، وآخر ما سمعه قبل أن يهوى في بئر النوم السحيق صوت مشاجرة حامية بين قطيع من الكلاب بالشارع فرغت من طعامها، وتتشاجر، فيما يبدو، على أنثى!

المومس الفاضلة

أشد الأيام قساوة على النفس هى تلك الأيام، التى تعقب الأعياد مباشرة، هواؤها راكد، إيقاعها بطىء كالسلحفاة المشلولة يركبها الخمول، وتشعر بأن روحك تجثم عليها أطنان من حديد التسليح ماركة عز الدخيلة، أو الصاروخ الصاعد أبوهشيمة لا طعم لأى شىء، وتدرك أن عدم المغامرة أو القيام بعمل جنونى هو مذبحة تعدها لنفسك.

فى تلك الأجواء كنت في عيادتى الخاصة أشعر شعور المحكوم عليه بالإعدام، أستقبل سيلا لا ينقطع من المرضى أعرف معظمهم وبعضهم كنت أقابله للمرة الأولى أستمع لشكواهم وآهاتهم وأناتهم، أتظاهر بأننى منتبه بكل جوارحى إليهم، وعقلى يسبح بعيدا في أجواء لازوردية تفيض بهجة ورقصا ومرحا، لا مكان فيها للبؤس والمرض والقهر.. حتى رأيتها..

فتاة تبدو في أوائل العشرينيات نظرت لعينيها، فشعرت وكأن مسا شيطانيا اجتاح روحى ياللهول ألهذه الدرجة تتمتع بعض النساء بعيون جارحة كالصقر، وكانت تتساند على امرأة في منتصف العمر تشبهها لحد كبير خمنت أنها أمها، فأشرت إليهم بالجلوس قائلا:

تفضلوا.. ما شكواكى بالضبط؟

أشارت إلى بطنها، وقالت كلاما كثيرا خمنت منه أنها تشعر بمغص أسفل البطن، فألقيت إليها بضعة أسئلة أخرى، ثم أشرت لها بأن تستلقى على سرير الكشف، ومررت على بطنها مسبار جهاز الأشعة التليفزيونية فلفت نظرى كيس جنينى مكتمل

التكوين، ونظرت لعينيها، فبدت متوترة للغاية، فتظاهرت بأننى لم ألحظ شيئا وألقيت عليها سؤالا عابرا بلهجة محايدة كقطعة اللحم، التى تجلط عليها السمن.
-" إنتى متجوزه"؟
بدا عليها الذعر، ونظرت لوجه أمها أستشف ما وراءه، فلم تفتنى اختلاجة شفتيها إلا أنها أجابت:
"لا يا دكتور دى لسه آنسة".
تصنعت البرود، وقلت:
" أنا بسأل بس.. ده مغص عادى.. التهاب في المبايض"!
دعوتها للنهوض.. مضت تجر رجلها جرا، وهى تتحاشى النظر إلي، فقلت لأمها:
" معلش استنينى بره شويه.. دى حالة نفسية، وممكن ما تكونش عايزه تتكلم على حريتها قدامك".
نظرت المرأة إلى في شك، إلا أنها انصاعت للأمر، فالتفت للفتاة، ونظرت لها نظرة حاولت أن أجعلها كنظرة المفتش كرومبو، وقلت لها:
إنتى حامل؟
حاولت الكلام، فقلت لها:
صارحينى بكل شىء، لم أخطئ في الأمر.. أنتِ حامل وفى الشهر الثالث أو الرابع.
دمعت عيناها، وقامت لتقبل يدي، وهى تهمس:
" أستر عليا يا دكتور".
وسالت دموعها كماسورة مجارى في حى شعبى، فرق لها قلبى، وقلت لها:

يمكنك إخفاء الأمر شهرا أو اثنين، ولكن ماذا ستقولين لهم عندما يكبر بطنك؟ انتفاخ!
قالت من وسط دموعها:
" أنا اتضحك عليّا وكان معشمنى بالجواز".
ولطمت على خديها، وصرخت في قهر: "اعمل ايه.. اعمل ايه؟".
كان موقفا سخيفا قابلته مرارا، وبدت لى النصيحة سخفا وعملا غير مجد، هم يعلمون كل شيء بالتأكيد فلا فائدة من الكلام، فحتما سيعلم أهلها، وحتى لو تزوجها من ألقى بصلبه في رحمها، فقد قضى الأمر وانكشف المستور، ولم أجرؤ بالطبع على الإشارة لها بالتخلص من الجنين، ليس لوازع دينى بالطبع، ولكن تنصلا من المسئولية، كما أنها لم يغب عليها الأمر بالطبع، ولن يغيب.
- والنبى يادكتور متقولش لأهلى، هما شاكين في الموضوع أصلا بس ما تقولهمش والنبى.
نظرت لها نظرة لامبالية، وبدت لى كخرقة بالية وعجبت لعينيها الجميلتين وتأثيرهما الجارح أول ما رأيتها، وكيف بدت لى الآن كالجيفة المنتنة أود التخلص منها بأى ثمن، فقلت لها بلهجة ساخرة: اطمنى يا ستى حتى لو عرفوا محدش هيعملك حاجة آخرك قلمين وشلوت وخلاص!
بدا عليها عدم الفهم وفوجئت بدخول أمها، وقالت لى:
متخبيش عليا هى حامل صح.. انا شاكة من زمان وقعته سودة الواد كتكت سواق التوكتوك.

أشرت لها بالهدوء وقلت بحزم:المشاكل دى تتحل بالعقل اتوكلوا على الله وربنا يوفقكم.
غادروا المكان فقرعت الجرس المثبت على المكتب، فظهرت الممرضة فقلت لها بمرارة:
اللى بعده!

الحارة

لست أدرى كيف وجدت نفسى فجأة في تلك الحارة كأن آلة زمنية عجيبة نقلتنى هناك، بل أننى أحاطت بى الشكوك أن هناك من أخذنى، واقتادنى عنوة إلى ذلك المكان، ثم أطلق سراحى على أرضها المهدمة!

كل ما تعيه ذاكرتى الضعيفة أننى كنت أكابد الشقاء واليأس تتجاذبنى شتى صنوف الحرمان أعانق القهر لا أجد طعما لأي شىء، فنصحنى بعض المحبين بالذهاب إلى تلك الحارة، ففيها الدواء ولكننى قابلت نصيحتهم بهمة فاترة وعزيمة طالها النكاح الشرس الوحشى، فالكل يعلم أن تلك الحارة منعزلة عمن حولها من الحارات، وأن الطريق إليها مملوءة بالأهوال، ومن استطاع عبوره واحتمال مشاقه والرجوع مرة أخرى قليلون، وقد جالست بعضهم وحكوا لى عن أساطير ومغامرات يشيب لها الولدان، إلا أننى لم أصدق حرفا واحدا مما قالوه، حتى ذهبت إلى هناك ورأيت بعينى كل شىء.

تجولت في أرجاء الحارة، ويالللعجب، فهذه الحارة غريبة للغاية لم تر عينى لها مثيلا من قبل، ولن يستطيع أى إنسان أن يصفها مهما حاول.

يقولون إن معالمها لم تتغير منذ الأزل، فكل شىء باق على عهده، ربما منذ عهد سيدنا آدم عليه السلام. بيوتها الكثيفة يبدو عليها طابع القدم متلاصقة وبعضها متهدم الأركان وآيل للسقوط، أرضها غير ممهدة بالمرة.

يقولون إن السبب في ذلك هو وصية رجل خارق للعادة كان يحكم تلك الحارة منذ أجيال وأجيال، ينسجون حوله الأساطير التى تتحدث عن فتوته وصلاحه، وكيف وحّد الحارة حوله، وقاد أهلها إلى انتصارات هائلة على الحارات المجاورة.
وما استنتجته حول موضوع الوصية أنه كتب عهدا تم تسلبمه إلى كل القاطنين بالحارة بوجوب بقاء كل شيء على حاله ومقاومة أى محاولة لتغيير معالم الحارة، إلا أن هذا العهد بمرور الوقت ضاعت معالمه، وشابه الانحراف واختلف في تفسيره، حتى أبناء البيت الواحد، ومهد ذلك لظهور فئة قامت بتفسير العهد حسب هواها.
حرصت، وأنا في الحارة، على مناقشة كل من أقابله وأصابتنى الحيرة من اختلاف الإجابات وتنوعها، وعلمت بأن بعضا من أهلها يستهين بالعهد ويظهر غير ما يبطن خوفا من إرهاب الفتوات، وقلة منهم امتلكت الشجاعة وجهرت بوجوب تطبيق العهد بروحه لا بنصه- إن كان يوجد نص من الأساس- وأن الحارة بحاجة الى التجديد أسوة بالحارات المجاورة الا أن رجال الفتوة القديم حالوا دون وصول تلك الدعوة لعموم أهل الحارة، بل وصل بهم الفجور لحفر خندق كبير حول الحارة يمنع اتصالها بالحارات المجاورة.
عانت الحارة من عزلة موحشة، ومن حاول النجاة بنفسه سقط في الخندق، أو طالته نبابيت الفتوات.
ويالللعجب، وعلى الرغم من أن بعض أهل الحارة ممن استطاع بعد مشقة هائلة الفرار والخروج منها إلا أنهم بمجرد وصولهم إلى حارة أخرى يحن بعضهم إلى منظر حارته القديم بأطلالها

البائدة وأرضها المتعرجة، بل يبلغ الحماس بالبعض منهم إلى إزالة القرميد من على أرض مكانهم الجديد وتهديم وتشويه ما استطاعوا من البيوت الجميلة والأبراج الشاهقة.
كل ذلك وأكثر أدركته من تجوالى ومناقشاتى مع الأهالى.
وذات ليلة اعترضنى رجل ضخم الجثة، معالم الشراسة بادية على وجهه، وقد ارتدى وشاحا عجيب الشكل، بدا متناقضا مع هيئته وبادرنى قائلا:
ما بال الغريب يسأل أسئلة ربما تقوده إلى حتفه؟!
ابتلعت ريقى مجيبا:
ـ ومن قال لك إننى أشك في عهد جدنا الأكبر وفتوتنا المبجل.
فأشار إلى وشاحه قائلا بتفاخر:
هذا الوشاح يعنى أننى من حملة العهد، هو سلسال قديم يعود إلى جدى الأكبر أحد رجال فتوتنا العظيم.
كنت أعلم بأن الحديث مع هؤلاء لا يجدى، فإما أن تؤمن على قوله ولا تتجادل معه إطلاقا، وإلا ستكون كافرا بالعهد وسيقتلك حتما.
ومرت أيام وأيام واستثقلت روحى البقاء في ذلك المكان الموحش وصممت على مغادرة الحارة بأى ثمن، وعندما نجحت في ذلك ووصلت إلى النور واجتزت الخندق العميق كان هناك جزء من روحى موقن من أننى عائد حتما إلى تلك الحارة في يوم من الأيام بحثا عن العهد الحقيقى.

الممر

بخطوات سريعة دلف إلى ذلك الممر، ولم يلتفت إلى اللوحات المضيئة الملونة، التى غطت جدرانه كان مصرا على عبوره فقط ليعرف ماذا سيجد على الجانب الآخر.
كانت خطواته تحد من سرعتها كلما توغل داخله وأنفاسه تضيق وشعره يتساقط، بل شعر قرب نهاية الممر ببصره يشحب، وأخيرا عبر الممر وفوجئ بصوت هادر ينطلق من خلفه، فالتفت وراءه ولم يصدق عينيه عندما رأى الممر ينغلق بإحكام قاطعا عليه خط الرجعة، وعندما استدار ونظر أمامه كاد يصرخ في ذهول من هول ما رأى.
حاول أن يطلق ساقيه للرياح ولكنه تجمد في مكانه وشعر بقوة هائلة تجذبه إلى أسفل، فلم يحاول المقاومة وانتهى ذكره عند ذلك، ولم يعرف عنه أحد شيئا منذ ذلك الحين.

الشعاع المقدس

نيران كثيفة تنطلق من مختلف أنواع الأسلحة، قنابل طائرات، قذائف دبابات، صواريخ، أعيرة نارية فتقتل وتصيب.
جراثيم متنوعة من بكتيريا وفيروسات وفطريات تستعمر أجساد بنى آدم فتصرعهم، حوادث سيارات، سقوط طائرات، أجساد تهوى من عل، فتتفتت على الأرض،
رأى كل ذلك وأكثر، بل وزعم بأنه رأى شعاعا نورانيا ينطلق من أجساد البشر لحظة الوفاه، ذكره بمنظر العصافير، التى كانت تنطلق من أقفاصها عندما تنفتح وتصفق بأجنحتها وتصعد للفضاء تتنسم الحرية.
نظر لأعلى، وبسمل وحوقل، وتبادل حوارا صامتا، ونظر لمن حوله قائلا:
اتبعونى.
نظروا له في شك، إلا أنهم تبعوه صامتين، ودلفوا معه إلى حجرة واسعة خالية من الأثاث، واتجه إلى أحد الأركان، حيث تراكمت عدة ألواح فوق بعضها، فأشار لهم قائلا:
هاك التعليمات أقرأوها جيدا وسأنتظر بالخارج.
ومرت سنوات طوال، وحاولوا الاتصال به، إلا أنه لم يستجب لهم، ولم يرد عليهم، وارتسمت على وجهه ابتسامة عابثة ونظر في ساعته وتمتم:
مرت ربع ساعة هذا يكفى!
ولم يشعروا إلا وهو بينهم داخل الحجرة، وتسلى بالنظر إليهم. كانوا في حال يرثى لها، ونشبت مشاجرات بين بعضهم وتراكم

عدد من الجثث على الأرض، فنظر لهم في برود، وأشار إلى الألواح المحطمة قائلا:
من منكم صنع ذلك يا أولاد الزنا؟!
ألقوا الاتهامات على بعضهم البعض، وبدا الضجر على ملامحه، ثم أخرج قاذفة لهب وصوبها نحوهم، ولم يشعر بأى ذرة من الشفقة عليهم، إذ يحترقون أمام عينيه.
خرج من الحجرة، وأشار إلى عدد من الرجال الغلاظ ضخام الجثة، وقال لهم آمرا:
نظفوا الحجرة جيدا وضعوا نسخة جديدة من الألواح فيها.
هرعوا لتنفيذ الأمر، فانطلق وجمع عددا آخر من الناس، ونظر لأعلى، وتمتم بكلمات غامضة، ثم ابتسم بسخرية، وأشار لهم قائلا:
والآن حان دوركم فاتبعونى!
وانطلق الجمع إلى الداخل، أما في الخارج فكانت أسراب هائلة من العصافير تصفق بأجنحتها الرقيقة وتصعد في الفضاء لا تلوى على شىء

قصة قصيرة جدا.. جدا

.. وحين استيقظ من نومه ورأى وجه امرأته غلبه النوم ثانية!

خواطر التبول

امتلأت مثانته، وشعر بها تكاد تنفجر، فهرع إلى دورة المياه، وانطلق تيار هادر يغمر المرحاض، وتسلى بإغراق صرصور صغير يمرح بالقرب من قاعه ببوله، وشاهده وهو يقاوم الغرق بشراسة، إلا أنه صوب جيدا عليه، وأطلق مياهه الكثيفة، ولم يهدأ إلا بعد أن خمدت حركته تماما واستسلم للتيار.
ارتدى سرواله، واتجه ليشد السيفون، ولم يدر لم شعر براحة عميقة بعد أن غاب الصرصور تماما عن ناظريه وغمرته المياه المتدفقة إلى شبكة المجارى حيث يفنى ذكره وينتهى أثره خرج إلى الميدان المزدحم بالبشر وشعر بصدره يضيق فنظر لهم في مقت وصورة الصرصور لا تغيب عن ناظريه!

الحلم

صحوت من نومى متلبسا بابتسامة، يبدو أنه كان حلما عظيما تتراقص أشباحه أمام ناظرى
ألمح فيه صولجانا وامرأة فاتنة وقاذفة صواريخ وأجسادا تفتك بها النيران.
حاولت وحاولت أن أتذكر تفاصيل أكثر علها تكون زادا في صحراء الحياة القاحلة، ولكن بنظرة سريعة إلى ساعة الحائط جعلتنى أدرك أننى صحوت متأخرا جدا.. نسيت الحلم وتبدلت الابتسامة إلى عبوسة مريرة!

الصدمة

كان يقود سيارته عائدا لمنزله، بعد عناء يوم شاق في العمل، كانت الشمس تلقى بحممها اللاهبة على الجميع، فيسيل العرق ويتمدد الأسفلت وتلتهب الأعصاب وفوجئ بسيارة تقطع عليه الطريق فجأة وتنطلق أمامه. غلت الدماء في عروقه وكبر عليه الأمر، كيف لمن هو في مثل مركزه أن يستهان به من أى كائن كان، فزاد سرعة سيارته ليلحق بتلك السيارة الآثمة، وعزم على أن يخوض معركة رهيبةمع سائقها المستهتر، وليكن ما يكون!

لم يلتفت لأبواق السيارات الغاضبة، وكاد يصدم شخصا يعبر الطريق أثناء المطاردة، حتى إذا وازى بسيارته سيارة غريمه قال بصوت عال وبلهجة صارمة:

قف جانبا يا ابن الزانية.

يبدو أن سائق السيارة الشاب فوجئ بقوله، وهدأ من سرعة سيارته، ولم ينبس بكلمة مما شجعه على كيل مزيد من السباب المقذع له.

وفى النهاية توقف الشاب الآخر بسيارته على جانب الطريق، ففعل مثله، ونزل من السيارة تتقافز شياطين الغضب أمام وجهه، وأمسك بتلابيب الشاب، الذى كان يبدو في نهايات العشرينيات من عمره وصرخ فيه:

بتكسر عليا الطريق ليه ؟ مستعجل قوى ياروح أمك ؟! وراك إيه ؟ ده انتوا كلكم عواطلية وملكوش لازمة.

نظر له الشاب نظرة غاضبة، وأبعد يديه عن رقبته، وقال له:

أنا مش راضى أرد عليك لأنك راجل كبير، وعيب الكلام ده يطلع منك يا عمو!
لو أن رصاصة انطلقت فأصابته لكان وقعها أشد عليه من تلك الكلمات، وما زاد من صدمته أن الشاب قد أطلق عبارته بلهجة جادة لا أثر فيها للسخرية.
ارتخت يداه، ونظر للشاب نظرة خاوية، وتركه وعاد لسيارته وانطلق بها.
عندما دلف للمنزل كان أول شيء فعله أن نظر في المرآة، ولاحظ الشيب الذى خط فوديه والنظرة المنطفئة، التى تنطلق من عينيه.
أهذا هو؟!
هو لم يكمل الخامسة والثلاثين من عمره بعد. طبيب ناجح ومتزوج وعنده أطفال.
عمو؟ وراجل كبير كمان هههههه.
فى الأيام التالية تبدلت أحواله تماما صار يجرى وراء الفتيات الصغيرات ويغازلهن، وكم من فضيحة كادت تحدث، ولكنهم في النهاية أمام سطوة عائلته ونفوذها يرضخون ولا يصعدون الأمر.
صار يرتدى ملابس أقل ما يقال عنها أنها فاضحة. أهمل عمله، رافق من لم يود أن يرافقهم، كان يود أن يعوض سنوات العمر الضائع بمثل تلك الأفعال الطائشة.
وبعد سنوات قليلة وجدوا جثته ملقاة بجانب الطريق، وجاء في تقرير الطبيب الشرعى أن المذكور قد توفى بفعل جرعة هيروين زائدة.

الانفجار
(حدثت بالفعل)

كان انفجارا هائلا أزال كل معالم الحضارة على الأرض، وعادت البشرية إلى عهدها القديم، حيث قطن من تبقى من البشر في الكهوف يتقوتون من الصيد ويشربون من ماء الجداول والأنهار السائرة يتدثرون بفراء الحيوانات، يفترشون الأرض ويلتحفون بالسماء.

فى وسط تلك الأجواء ظهر هو. عملاق قادم من وراء الأفق يتمتم بكلمات غامضة، وقد بدا الحزن الشديد في عينيه الجاحظتين، وخلفه امرأة تسير من خلفه مطأطأة الرأس. انعزلا في كهف ناء، وأخرج الرجل من جراب قماشى قديم كتابا ورقيا، فنظرت له أمرأته بنظرة متسائلة، وقالت له:

ماهذا؟

- كتابنا المقدس ورثه أبى عن جدى، هذا الكتاب هو كل ما تبقى بعد الانفجار العظيم، هكذا أخبرنى أبى!

-للأسف جدك كان أميا لم يعرف القراءة ولا الكتابة هل تحفظ شيئا من هذا الكتاب؟

-نعم أحفظ بعض قصار السور، التى لقنها إياى أبى وستحفظينها أيضا، فمن يدرى فقد لا يمتد بى العمر حتى أنقلها لأبنائى.

ونظر لولديه بحنان، وهما يحبوان على الأرض، ثم قام من مكانه وانخرط في صلوات طويلة.

- لم أر في حياتى قردا يصلى أو يتصفح كتابا!!

هكذا قال أحد الأشخاص، وهو يراقب الكهف من بعيد، كان يمسك منظارا مقربا بكلتا يديه، ثم نحّى منظاره جانبا وانهمك في تدوين بعض الملاحظات في ورقة صغيرة بجانبه، وقال له مساعده

-سلوك غريب في مثل تلك الأجواء القاسية!

تثاءب في ملل، وقال له:

هم يولون معتقداتهم أهمية كبرى، ولا تنس أننا جمعنا من تبقى منهم في تلك المحمية الطبيعية، بعد أن أفنوا بعضهم البعض، وقتلنا نحن من تبقى منهم بعد أن حولوا عالمنا إلى جحيم بإرهابهم.

-لست أدرى ياسيدى لِمّ لم نتخلص تماما من تلك الحيوانات المسعورة؟ وما الفائدة التى نجنيها من الاحتفاظ ببعضهم هنا.

-مراقبة سلوكهم ستفيد بالتأكيد في تلافى ظهور العنف في مجتمعاتنا المتحضرة في المستقبل !

(من إحدى حلقات قناة ناشيونال جيوجرافيك منتصف القرن الحادى والعشرين)

البار

رأيته لأول مرة في ذلك البار الصغير بوسط القاهرة، هو رجل لا بد أن يلفت انتباهك بمجرد رؤيته هو ليس كحاملى الوجوه، التى تكسو الجمجمة لتميزهم عن فصيلة القرود أو الشمبانزى، بل تحمل ملامحه كل شىء في وجه واحد، فوداه وخطهما الشيب، شعره فاحم السواد، وقد تدلت خصلتان رماديتان على جبهته زادتاه وسامة، عيناه تقتحمانك بنظرة فاحصة خبيرة، جسده ممشوق بلا ترهل ينبئ أن صاحبه اعتاد ممارسة

الرياضة بانتظام. خمنت في جلستى المعتادة بجوار البار أنه رجل خبر الحياة، وأنه من الواجب التعرف إليه، ولم أتردد فأومأت إليه بتحية فردها بحماس، دلالة على أنه وحيد مثلى يبتغى رفيقا يشاركه الشراب، فذهبت إليه وجلست أمامه وأحضرت له كأسا من البراندى، وتجاذبنا أطراف الحديث، فعلمت منه أنه ضابط سابق بالجيش، ويعمل حاليا في الأعمال الحرة، حتى صار من رجال المال والأعمال، وحكى لى عن مغامراته النسائية وسفرياته المتعددة في كل بلاد الدنيا، وتحدثنا في كل شيء، في السياسة، في الأدب، في الحياة، ويوما قال لى:

لماذا تشرب؟

فأجبته: لن أكون تقليديا فأقول لك أننى أشرب لكى أنسى همومى، فلا توجد هموم لدى بالمعنى التقليدى، ولكن قل إننى أشرب لكى أهرب من جحيم العقل ولو لسويعات قليلة.

: ولماذا تهرب من عقلك؟!

ـ لأنه ببساطة غير سوى! لا هم له سوى طلب المحال وتعذيب صاحبه بضرورات الكمال!

فضحك قائلا:

أهنئك، فقد عبرت عما في داخلى، ولكن ألا ترى في جوابك شيئا من العبقرية؟!

فجاء دورى لأضحك قائلا:

بكل صدق أقول لك كلا، ما هى العبقرية من وجهة نظرك؟

: العبقرية، العبقرية، العبقرية أن تعمل مالا يستطيع الآخرون فعله.

-هراء!
: إذن ما هى العبقرية من وجهة نظرك؟
ـ العبقرية من وجهة نظرى هى خلل كيماوى داخل المخ يؤدى إلى اضطراب بوصلاته، وإلى أن يعمل الدماغ بهارمونية مختلفة عن العادة، وأن يفكر صاحبها بطريقة أخرى، لا أقول إنها صحيحة، ولكنها تختلف عن طريقة تفكير الشخص العادى.
: ولهذا يبدو العبقرى مجنونا؟
فقلت له
- بالظ
بط كل عبقرى مجنون، ولكن كل مجنون ليس عبقريا!
عند ذاك دخلت بائعة الفول السودانى ممشوقة القوام، ملامحها تنبئ بجمال ذابل، نظرتها تقول إنها عاهرة واعتزلت، ولكن لا مانع لديها من معاودة العمل إذا كان المقابل يستحق!
رأيت نظرته إليها، فقلت له، وقد غيب الكحول عقلى:
شخص عادى قد ينظر لتلك المرأة على أنها غنيمة سهلة ومضاجعتها متعة، ولكن الشخص العبقرى قد ينظر إليها كأنها لم تكن، لأن مضاجعتها قد تمتعك دقائق، ثم تخلف الدقائق شعورا بالذنب أو الخيانة يذهب بأثر المتعة، وتندم على تلك المغامرة، وتتمنى عدم حدوثها من الأصل!
فقهقه قائلا:
أنت إذن من رجال الرب؟!
- كلا لست من رجاله للأسف! ولكنى أتحدث بمفهوم مادى بحت، والعجيب والمريب أن الشعور بالذنب يتواجد عند الملحد أكثر من المتدين، وكأنه عضو خلقه الرب في جسدك!

: ما الحل إذن؟
- لا حلول في وقتنا الحالى للأسف! انت في عصر بلا معجزات وبلا يقين، وحتى تراث الأديان ودساتيرها ينهشها الشك وتطالها اتهامات التزوير.
: أبشر إذن فإنك من العشرة المبشرين بالنار!
ـ أخشى أن يكون التراب مصيرنا الأبدى!!

ما وراء الغيوم

: سأراك حتما، فلن تظل طويلا مختفيا وراء الغيوم.
تردد ذلك الخاطر داخله، وظل يلح عليه طويلا، وتضخم يوما وراء يوم، حتى أصبح محور حياته وشغله الشاغل، يتخايل له في منامه في أحلام اليقظة، لم يعد يهنأ بطعام أو شراب، تترى أيامه في توتر شديد وقلق خانق تهيبا من ذلك الأمر العظيم.
وتمر الأيام ويدرك أنه يجرى وراء سراب، وأن الفرصة في ذلك اللقاء العظيم تتضاءل وتنكمش،
وفجأة وفى ليلة ممطرة جاءه هاتف باطنى يهمس إليه بأن النجاة في الفرار، وأن اللقاء قد اقترب
واجتاحته الهواجس، وتفكر كيف يتجهز لذلك اللقاء الحاسم، واكتشف في ارتياع أنه ظل طوال عمره يتشوق للحظة اللقيا، ولكنه لم يعد عدته كما يجب، فتح دولاب ملابسه، وأخذ يقلب بعصبية، فلم يجد شيئا مناسبا يرتديه، وبحث في جيوبه فلم يجد ما يكفى من المال يصلح لشراء هدية مناسبة تحية لضيفه الكريم.
أخذ يعب الخمر عبا، وفى الصباح وجدوه جثة هامدة، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة كئيبة تنبئ بأن صاحبها قد رأى ما لا يسر قبل وفاته!

الوردة البيضاء

لم يطلها الذبول يوما ما، بل ظلت محتفظة برائحتها العطرة كل ذلك الزمن، وكأنها تترعرع في أجواء الحرب والدمار، وتتغذى على أدخنة البارود بدلا من الماء والهواء.
نظر إليها، واجتاحه الحنين وغطى صوت دقات قلبه على صوت الانفجارات الهائلة، التى تدوى بالقرب من.ه
: هجوم ضخم يا شباب مئات الإرهابيين يهجمون على" الراموسة".
دوى صوت الضابط بالجيش السورى، فاتخذت الكتيبة وضع الاستعداد، وذهب كل لموقعه وتتابعت تعليمات قائدهم، وجرت معركة طاحنة ذهب فيها العشرات من الجانبين.
سبح عقله بعيدا، وتذكر حياته الخالية، وما جرى فيها وقارن بين ما كان يفعله بالماضى، قبل الحرب ووضعه الآن، وكانت المقارنة في غير صالح زمانه السابق.
إنها الحرب، حيث يمر عليك اليوم كأنه أعوام، تصادق شخصا بالنهار لتجده قد استشهد في المساء بطلقة غادرة أو بفعل انفجار سيارة ملغومة يقودها انتحارى من جماعات الظلام، وحيث يصير من الواجب عليك أن تقتل وإلا ستقتل.
كم من مرة لم يجد ما يسد به رمقه إلا لقيمات معدودة أو شربة ماء ملوثة، ولكنه كان يجد كل ذلك أشهى مما كان يتناوله قبل الحرب في بيته.
فى الحرب وجد المعنى، الذى كان يبحث عنه طويلا، وجد الصداقة الحقة، وجد الوفاء، تعلم معنى الكرامة، عرف ماذا

تعنى كلمة (الوطن)، بعد أن كان معناها مبهما لا يدل على شىء.
أخرج وردته البيضاء وقبلها بشوق.
: سيارة قادمة يقودها انتحارى عليكم بها يا شباب.
جهز قذيفته الصاروخية، وصوب بإحكام ثم أطلقها، وانكفأ زملاؤه بعد أن دوى انفجار رهيب، عقب تدمير السيارة المحملة بالمتفجرات.
ياللهول ما الذى يقنع هذا الرجل بتفجير نفسه ليقتل أناسا يدافعون عن وطنهم من نفس ملته ودينه؟! ماالذى زرعوه في عقولهم؟ وتذكر ما روى عن(حسن الصباح)، صاحب قلعة الحشاشين في الماضى السحيق، وكيف كان يجعل أتباعه الفداوية يشربون الحشيش لينفذوا عمليات اغتيال لخصومه، إلا أن هؤلاء حشيشهم كتب التراث المليئة بالفتن والضلال وحور العين ممن يقنعونهم بأنها في متناولهم بعد الموت!
أخذ يقاتل بحماسة، إلا أن الطرف الأخر كان مصمما على التقدم بأى ثمن، وتوالت موجات الفداوية تجتاح مواقع وتحصينات الكتيبة.
وبعد انقشاع غبار المعركة، وعلى الأرض التى ارتوت بالدماء، كانت هناك وردة بيضاء تقبض عليها باستماتة يد مقاتل شجاع يبتسم ابتسامته الأخيرة.

*** الراموسة: هى منطقة فاصلة بين حلب الشرقية والغربية، حيث دارت معارك حاسمة بين الجيش العربي السوري وفصائل المعارضة المسلحة، انتهت بانتصار الجيش السوري وطرد المعارضة من المدينة.**
*** تحية للمقاتل الشجاع شادي أل ويس وزوجته الورد البيضاء، والقصة مستوحاه من موقف حقيقي أثناء الحرب المستعرة حتى الآن.**

القمر الضاحك

نظر للقمر، وحاول أن يراه من وسط سحب التلوث التى تملأ السماء، وخمن أن هذه مجموعة الشعرى اليمانية، وتلك مجموعة الدب القطبى، والتفت لصاحبه، فراعه تكاثف السواد على وجهه، ونظر وراءه فشاهد خلفية انقبضت لها روحه، وألح عليه السؤال اللازوردى.

: لماذا أنا هنا، وكيف؟!

أشعل سيجارته العاشرة، على الأقل تلك الليلة، وفجأة طوح بيده وصفع صاحبه، الذى أصابه الذهول، فلم يدع له فرصة الرد، وأتبع صفعته بصفعة أخرى، ثم لكمه بكل ما يملك من قوة.

جاء الناس من كل حدب وصوب ليفصلوا بين المتعاركين، فواجههم بنظرة ساخرة مستسلمة تطفح مرارة، ونظر لصاحبه الذى يحاول مقاومة الناس لرد الضربات له، ولسانه ينطلق بما لذ وطاب من كلمات السب الفاحش والتهديد، فقال له ببرود:

سامحنى يا أخى لا بد أن تفعل من وقت لآخر شيئا غير مألوف وإلا فسيصيبك الجنون القاتل، وانطلق لا يلوى على شىء، وخيل إليه أن القمر المختفى خلف الغيوم الملوثة يضحك في حبور.

فراسة

نظرت لوجهه، واجتاحنى خاطر مفاجئ نفد لروحى كما يخترق السكين قالبا من الحلاوة الطحينية
رباه!!كيف لم أفطن لهذا من قبل؟!
كيف تطبع الروح والسلوك الوجه، وتجعله معبرا عن شخصية ما ونمطا سلوكيا معينا، ولا أقصد تشابه الملامح، ولكنى أعنى شخصية الوجه نفسها بنظرة العين، بإيماءة الوجه، باختلاجات الشفاه، بالابتسامة، بالضحكة، إلخ إلخ.
على سبيل المثال لا أنسى أساتذة اللغة الفرنسية، وكيف أن بعضهم يشعر بأنه فرنسى الملامح، وتتعجب كيف لوحت مهنته وجهه ليتماهى معها بهذا الشكل العجيب!
الأمر نفسه شعرت به مع العاهرات والغوانى ممن تعاملت معهن، فعلى أختلاف أعمارهن وسحنهن إلا أنهن يشتركن في نظرة العين غير المستقرة والبسمة اللعوب والشعاع المنطلق من العينين يهمس لكل من يراهن هاتفا: صاحبتى مومس!
دكتور(مصطفى الشواف)، أحد أصدقائى المقربين، عرفته منذ سنوات قليلة طبيب قلب كفء للغاية مجتهد لا يألو جهدا في تحصيل العلم، يعمل أكثر من أربع عشرة ساعة يوميا، بلا كلل، لا عطلات، لا إجازات لدرجة أننى سألت نفسى ذات مرة لماذا يحيا؟
مع الوقت، عرفت إجابة هذا السؤال، خاصة عندما تذكرت صديقا قديما، وبالمصادفة يعمل أيضا طبيب قلب بالجامعة.

لم يكن هناك تشابه في الملامح بينهما، ولكن من يعرف كليهما مثلى سيقول سبحان الله نظرة العين الواثقة نفسها، الغرور نفسه المطل من خلجات الوجه، مع كبرياء ساحقة تأخذ بلبك وصولية وانتهازية على استعداد لسحق كل من يقف في طريق صاحبها المفضى- من وجهة نظره - إلى الخلود والمجد، وفى سبيل ذلك المجد الموهوم تنمحق صداقات، وتكتسب أخرى، إلخ إلخ.

: لماذا تحدق في هكذا؟!

هكذا قال لى دكتور مصطفى، وأنا جالس بجانبه على المقهى، فهززت رأسى قائلا:

- لا عليك، تذكرت صديقا قديما! والفضل لك!

ثورة

٢٨ يناير ٢٠١١، وجه القاهرة ملبد بالغيوم، السماء مكفهرة بسحب محايدة لا تنذر بأى شىء، يدرك جيدا أنه على مقربة من هدفه، الذى نذر له حياته.
أخيرا، تحرك شعبه بعد أن ظن أنه محض جثة متعفنة يتناهى لمسامعه دوى طلاق الرصاص وقنابل الصوت والغاز المسيل للدموع، الذى تلقيه قوات الأمن المركزى على المتظاهرين بميدان التحرير، يدرك أن كل مدينة وميدان يجرى فيهما شىء مماثل.
تحرك بحذر، وأخذ يتأمل المشهد بروية من كان يتصور أن يهب شعبه على قلب رجل واحد من أجل المطالبة بإسقاط ذلك النظام الحقير، الذى حكم بلاده أكثر من أربعين عاما، ودمر فيها كل شىء، دمر روحها وهويتها، أصاب شعبها بالفساد والجهل والمرض، نخر السوس في مفاصل ذلك النظام، كما نخرت الأرضة عصا سليمان، وأصبح على وشك التهاوى والانهيار.
أخذ يتنقل في أرجاء الميدان، وعند كوبرى قصر النيل، ومنطقة الكورنيش، وعدد المتظاهرين يزداد، وقوات الشرطة تتراجع ويصيبها الإنهاك، شاهد عددا من القتلى وعربات الإسعاف تنقلهم إلى قصر العينى ومستشفى المنيرة العام ياللهول!! المارد خرج من قمقمه لا يأبه لشىء يتحدى الحظ والقدر، يواجه بصدره المفتوح الرصاص وقنابل الغاز.

صار هدفه الآن أن يعلم كيف حدثت هذه المعجزة! هى أول ثورة حقيقية يكون محركها فقط هو الشعب، وحتى ثورة يوليو العظيمة لم يخرج الشعب هاتفا بسقوط الملكية، إلا بعد أن اطمأن أن الجيش قد خرج أولا وهو له حام ومساند.
يزداد وقع خطواته، لا يصيبه الملل يتدفق الأدرينالين إلى دمه، صانعا منه وحشا حقيقيا يدرك أنه يرى ويشاهد، بل ويشارك في صنع أحداث قد لا تتكرر مرة أخرى، إلا بعد مئات السنين وأن التاريخ يعوض ركود السنين السابقة بأحداث متلاحقة مثيرة.
فجأة توقف، وجحظت عيناه للأمام ونبض قلبه يتسارع في عنف مستحيل ما هذا؟! منى السخاوى أهذه هى؟ وهل قدمت من قريتها بالغربية لتشارك في التظاهرات؟!
توجه إليها، ووقف أمامها، وابتسم قائلا:
عالم صغير أبحث عنك منذ زمن وسبحان الله أجدك هنا.
تورد وجهها بحمرة خفيفة، ولكنها احتفظت برباطة جأشها قائلة:
-كان لا بد أن آتى، الحمد لله أنك بخير.
خفق قلبه، واجتاحت رأسه في لحظات خاطفة ذكريات قديمة، ورسائل حب متبادلة، ولكن الأقدار لم تشأ ما كان يشتهيه منذ زمن.
أخذا يتمشيان على كورنيش النيل، ويفران مع المتظاهرين هربا من عنف قوات الأمن، واشتركا في إلقاء الحجارة على الجنود والضباط، وقبل غروب الشمس شرعت قوات الأمن في حركة انسحاب كامل، علم فيما بعد أنه شمل مصر كلها، تابع

في نشوة سيطرة الشباب على الميدان، وراعته بعض أعمال السلب والنهب، التى قامت بها جيوش البلطجية والعناصر الإجرامية ممن فروا من السجون بتواطؤ من النظام، ليضعوا الشعب أمام خيارين أحلاهما مر، بقاء النظام أو الفوضى والانفلات الأمنى!

ليكن ما يكون، لن يتحرك من هنا قبل رحيل الطاغية، سنوات طوال ذاق هو وأقرانه الذل والفقر والمعاناة يشاهدون خيرات بلادهم تصب في جيوب عدد بسيط من العائلات ورجال الأعمال والمحتكرين، سنوات طويلة يعانى الحرمان، تعلم بالكاد، لم يستطع الحصول على شقة بسيطة لكى يتزوج ممن أحبها وأحبته لمجرد أن إمبراطور الحديد وأباطرة الأسمنت قرروا زيادة ملياراتهم على حسابه وحساب الشعب المغلوب على أمره.

: الثورة الحقيقية لا بد أن تدمر وتقتل من قتلوا حلمنا!

ـ ماذا تعنى؟

: أعنى ما قلته يا منى رحيل مبارك أو حكومته، لن يحلا المعضلة، لا بد من إعدام كل من سرق وبغى في هذه البلاد، لا بد من إعادة توزيع الثروة بالعدل بين الناس.

نظرت (منى) للمتظاهرين، الذين يهتفون:" عيش حرية عدالة اجتماعية"، و" الشعب يريد إسقاط النظام"، ثم قالت له:

هل يتحقق الحلم؟

نظر بقلق إلى توافد عناصر جديدة للميدان، وميز الذقون الصغيرة، وشاهد طابورهم المنظم، وتمتم قائلا:

لا أعتقد ذلك !

العدم

ـ كل شيء باطل!
هكذا ردد باطنه، وهو يتأمل كل الأشياء والمشاهد من حوله، اغتراب كامل عن واقعه المؤسف ما الذى أتى به إلى هنا؟!
نظر بكراهية للأشخاص المحيطين به، وتمنى لو أنه امتلك سلاحا قاتلا ليفتك بالجميع.
ضاع عمره بين أضابير الكتب، التى لوحت عقله، وجعلته عاصيا لايرضى بأى شيء، وخلقت داخله عالما مثاليا يتمنى ارتياده، كم عانى من مئات الصدمات، جراء التصادم القوى بين ما هو داخله وبين ما هو موجود بالعالم الخارجى.
شعر بصداع قاتل يجتاحه، فأشعل سيجارة حشيش، وغرق في أحلام اليقظة المجنونة.
شعر برجفة تسرى في جسده، وهو يتسلق جبال الهيمالايا، وضع قدما على قدم، وهو يحاور الدلاى لاما، وسال عرقه، وهو يجتاز مستنقعات الكونغو، وهب واقفا يتراقص على وقع أنغام السامبا تحيط به العشرات من البرازيليات الفاتنات، ثم أطلق صرخة هائلة وهو يهجم بجيوشه الجرارة على مدينة القدس ويطهرها من دنس اليهود، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ماكرة وهو يرى الرعب على وجوه أعدائه، إذ يرونه أمامهم وهو يأمر أعوانه بقتل هذا وإلقاء تلك في غياهب السجون، كم أنت لذيذ أيها الانتقام! وفى آخر لحظة يعفو عنهم ليظفر بكل شيء في النهاية!

أخذته غفوة قصيرة تمنى فيها أن يكون من المنظرين ليوم الدين كإبليس ! الموت يحدث للآخرين فقط! أما أنت فباق خالد ستشهد نهاية الجميع، سيكون لك في كل عصر ذرية تسبح بحمدك، ثم تشهد فناءها لتكون ذرية أخرى، وهكذا دواليك إلى آخر الزمان، وإن يوما عند ربك بألف سنة مما تعدون، يا الله.. كم خلقت الإنسان حقيرا! لا قيمة لعمله ولا لعمره أمام الجبروت الأعلى، ولهذا لن يستسلم أبدا، وسينذر ما تبقى من عمره ليحصل، ولو على شرارة من تلك الجذوة الخارقة، وليطلع على سر الأسرار، حتى يجعل لوجوده قيمة!

****

ـ حالة سكيزوفرينيا متقدمة للغاية تصاحبها هلاوس مرضية مع اكتئاب تفاعلى حاد.

هكذا قال أستاذ الطب النفسى، وهو يتفقد عنبر المرضى النفسيين بقصر العينى، مخاطبا تلامذته من نواب القسم وطلبة البكالوريوس، ثم أردف قائلا:

هذا المريض يتلقى حاليا جلسات مكثفة من العلاج النفسى مع جلسات كهرباء على المخ، ولكن حاذروا، وأنتم تتحدثون معه، ففى بعض الأحيان تتلبسه موجة من العنف تطيح بكل شىء أمامه!

الصفعة

كان يوما قائظا شديد الحرارة، الجدران تبخ نارا صورة مصغرة من جهنم! وما لبثت امرأته أن طلبت منه أن يأتى لها بسباك بسبب عطل طارئ، فنفخ في ملل، وارتدى ملابسه على عجل، وغادر المنزل، وطفق يسأل ويستقصى حتى دله أولاد الحلال على الأسطى(محروس)، فاتصل به وضرب له موعدا بعد ساعة.

جاء الأسطى محروس بصحبة ولده يحملان أدوات العمل، وتأمل الرجل، فقدر أنه في منتصف الثلاثينيات، رقيق الحال على ما يبدو، يرتدى ملابس رخيصة الثمن تبرز عينيه للخارج في نظرة منطفئة تشى بأن الرجل يصرف نصف دخله على الأقل على المخدرات، ونظر لولده الصغير وسأله عن عمره، فارتسمت على شفتى الطفل ابتسامة وقحة، وهو يجيبه بأنه في الثامنة من عمره، وعرف من والده بأنه ترك المدرسة ليساعده في عمله، وعندما استنكر ذلك، أجابه الأسطى محروس في لامبالاة:

محدش بياخد أكتر من نصيبه يا سعادة الباشا!

وبدأ العمل في همة ونشاط، ولم يفته أن ابن الأسطى محروس يتأمل المنزل باهتمام، وتوقفت عيناه عند أرجوحة في أحد الأركان يلعب بها ولده الصغير ذى سنوات الست، فلمح في عينى الولد رغبة جارفة، فرق له واقتاده من يده، وأجلسه على الأرجوحة، والطفل تلمع عيناه في حبور، فتأمله وتأمل ولده الصغير، وقارن لاشعوريا بين ولده، الذى يتفجر الدم من

وجنتيه دلالة على الصحة، وبين ابن الأسطى محروس ذى الوجه الأسمر والعلامات الدائرية البيضاء، التى تزين خديه دلالة على أنيميا نقص الحديد، وعلى استعمار الديدان لأمعائه، وتحدث مع الطفل قليلا، وراعه ردود أفعال الطفل التى تشى بسوء تربية، وأن عمله الشاق قد قفز بعمره سنوات وسنوات!
وبعد انتهاء عملهم، ونقده إياهم أجرهم، لم يدر إلا وولده يوجه صفعة على مؤخرة عنق ابن الأسطى محروس، الذى انقلبت ملامحه في تعبير شرس للغاية، وكور قبضتيه في تحفز وتظاهر بتعنيف طفله، وشفتاه تتمتمان بكلمات اعتذار واهية للأسطى محروس، الذى أطرق وجهه في مرارة، وحاول استرضاء ابنه بإعطائه بقشيشا محترما، ولم يفته أن الطفل يعانى صراعا داخليا في أعماقه، وأن دمعة قهر وهوان تجمدت على مقلته، وأنه في ظرف آخر ولولا وجوده لفتك بطفله جزاء له على ما اقترفت يداه.
اجتاحته لحظات كئيبة، وشعر بعطف جارف عليهما، ولعن الدنيا، التى تجعل أناسا يغمسون لقمتهم بالذل.
-الله ينور يا أسطى محروس!
هكذا قال للرجل، قبل انصرافه، فهز الأسطى محروس رأسه، وهو ينظر إليه، وإلى ولده نظرة شعر بالرهبة من هول الرسالة، التى تحملها، والتى تقول ربما نلتقى مرة أخرى وعندئذ...!!

المحكمة

تغير مفهوم الحياة، فأضحت فرصة مثل أى فرصة، طوبى لمن يغتنمها وينهل من لذاتها، يستوى في ذلك الحلال والحرام سواء بسواء، وحيث توارى الرب منذ أحقاب بائدة يرقب عباده، وقد توقف سلسال أنبيائه ومعجزاته، فتركهم في حيرتهم السرمدية يتخبطون في دنيا مراوغة بلا قواعد او قوانين.

صوب ناظريه إلى رجل في منتصف العمر يرتدى حلة كاملة، تزينها كرافتة تأخذ بخناقه، تتحدى شمسا غاضبة تصب نيرانها على المكان، وتأمله ببطءن تأمل حركاته وسكناته، فأدرك أنه محض شخص مصنوع لا يمت للطبيعة بصلة، يتحرك بوقار مفتعل، يتقمص شخصية بائدة من الماضى ليس هذا بزمانها أو مكانها، وخمن من حديثه عبر هاتفه المحمول أنه محام، وقد ارتفع صوته وتحرك حاجباه واهتزت رأسه، وبدت معالم الخطورة على وجهه، وهو يتحدث إلى الطرف الآخر

كادت خصيتاه تنفجران، وخيل إليه أنه سمع صوت الانفجار الهائل، فابتعد عن المكان وحدق في فتاة تسير بمحاذاته، معدومة الجمال، زين السواد تحت جفنيها دلالة على فقر دم يفتك بها، وقد امتشقت عباءة ضيقة تكشف نهدين صغيرين، ولكنها تبرز مؤخرة رائعة متناسقة تهتز من أعلى إلى أسفل، وحدق بلا وعى في ملابسها الداخلية، التى تبرزها العباءة بلا خجل.

هى فتاة تعرض بضاعتها، حيث مؤخرتها هى رأسمالها، الذى لا تملك غيره، وعليها استثماره حتى يوقع بالصيد المطلوب،

هاوى المؤخرات، فيقضى وطره ثم يصيبه الملل سريعا فيتركها مطلقة تقضى بقية عمرها داخل أروقة المحاكم تتسول نفقة تقيم أودها هى وأطفالها، وهو ما يفسر لقاءها المحتم بالشخص الغريب، مرتدى الكرافتة، يوما ما!

يقترب أكثر من شخص قصير القامة يطلق لحيته بجانبه امرأة منتقبة يتبادلان حديثا هامسا يتلفت حوله في توتر وكأنه يرتكب خطيئة كبرى بتواجده في العالم الخارجى وسط العصاة والفسقة! يتأمل أمرأته، فلا يرى منها سوى عينيها، وقد خطتهما بكحل جعلها شديدة الإثارة وذات فتنة خاصة، وتذكر قولا قديما لبرناردشو إن المرأة العارية لا تثير، ولكن الإثارة الحقة في ارتدائها لبعض الملابس، ولكنه وجد أن ذروة الإثارة في تغطيتها لكامل جسدها مما يتيح فرصة واسعة للخيال لينطلق كجواد شرس يطوى أرض الغرائز كما يشاء.

انطلق أذان الظهر من الجامع القريب، فحدق في وجه الرجل الملتحى، وهو يبسمل ويحوقل وتغرب عيناه كالمصروع، ولم يدر لماذا شعر بأن هذا المشهد يشوبه الافتعال! ولكن لماذا لا تكون أنت على خطأ؟وهذا يستدعى أن تعرف حقا ما هو الإيمان، وكيف يتم استحضاره، وهل يتطلب زمنا معينا ليوقر في القلب؟ أم هو كالغدة، مثل مثيلاتها من غدد الجسد تفرز هرمونا يسمو بالروح، ويجعلك مصروعا تبسمل وتحوقل كهذا الشخص الذى رأيته توا!

أصابه الملل، وهو يقطع الممر الغاص بالبشر مرارا وتكرارا في انتظار دوره، ونظر لساعته، ونفخ في غضب، وأشار

لرجل في منتصف العمر يحمل صينية تراصت عليها أكواب متسخة، وقال له:
واحد شاى مظبوط يا ريس.
ابتسم باطنه، وهو يتذكر(عم عبده)، كما كان يناديه منذ زمن كان عاملا بالإدارة معه، وكان شخصية فريدة من نوعها، كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه كان يحمل دكتوراة بتقدير امتياز في الحياة الدنيا، لم يكن هناك أى عمل يعجز(عم عبده) عن عمله، كان صانعا ماهرا في الكهرباء والنجارة والسباكة، وعمل في بداية حياته بالزراعة، وكان يحلو له دوما الحديث عن أنواع المحاصيل والسماد، وأصناف الكيماوى، تجده دائما يعرف كل شىء في الوقت المناسب إن احتجت أى شىء في أى وقت فعم (عبده) دائما لها، عندما كان يتجول بصحبته في أحياء القاهرة كان يشعر دوما أنه يتجول بصحبة(على الزيبق)، أو السلطان (طومان باى)، اكتشف في دهشة أنه يعرف عددا هائلا من الناس داخل القاهرة، وتساءل كيف اتسع العمر القصير لهذا؟! رحمك الله يا عم (عبده) كنت أكثر نفعا لى من كثير من القوم، ممن يتباهون بشهاداتهم وأموالهم وحسبهم ونسبهم.
احتسى الشاى المر في تقزز، وأشعل سيجارته الثالثة عشرة على الأقل، وتصاعد سعاله، ولكنه تلاشى وسط الضجة المحيطة.
انتقل من مكانه لأول الممر، عند بداية الدرج الهابط لأسفل، حيث جلس اثنان من أمناء الشرطة من العاملين بالمكان، ووقف على مقربة منهما، وتأمل وجهيهما الأسمرين، الذين لوحتهما

الشمس في الماضى الغابر مما يشى بأصل ريفى، أو ماض محمل بالعذاب والشقاء، وتمحص عيونهما فشاهد قسوة ورغبة بالانتقام من كل ما كابداه قديما، ولاحظ وقوفهما في تراخ، ونقيب شرطة يمر بهما، ويلقى إليهما أمرا عابرا، فتظاهرا بالاحترام، ثم جلسا مرة أخرى يتبادلان حديثا ساخرا، وقارن بينهما وبين الضابط الصغيرالوسيم أبيض البشرة، لا بد أن أسرته ذات مال ونفوذ لتلحق ابنها بهذه الوظيفة، التى يحتكرها الكبار في هذا الموطن من العالم، ولاحظ في سخرية نظرة عينيه الواثقة وخطاه الثابتة، طاووس صغير يعتقد بأن النجوم على كتفيه أثمن ما في الدنيا، فهى كالدجاجة تبيض قوة ومالا!

كاد ينسى لِم جاء إلى هنا، وغرق في خواطر سوداء، أى ضياع تحياه؟ويحياه قومك؟ أعمار ضائعة وسط أكوام من ورق لا تسمن ولا تغنى من جوع، منذ سنين طويلة كنت لا تحفل بمرور الزمن تعتقد بأن العمر أمامك ،أهدافك في متناول قفزتك، ومرت السنون فلا هدف تحقق، بل زادت حياتك تعقيدا من المستحيل أن تحيا، كما اخترت وقررت، ولكنك تعيش بالقصور الذاتى، بقوة دفع غاشمة كساقية تجرها ثيران الموروثات والتقاليد والأديان، وعندما تنجح في إخضاع عالمك لمشيئتك البشرية المحدودة، فذاك هو النصر الحقيقى، ولا تتوهم أنك فاعلها!

اقتربت منه امرأة رثة الملبس، تبدو في العقد السادس من عمرها، تقول له اعطنى مما أعطاك الله فمد يده في جيبه وأخرج جنيها، فلهجت بالشكر، وذابت وسط الزحام تقوم بعملها وتجمع مالا تعطي بعضه آخر اليوم لمن سمح لها بالتواجد هنا،

وابتسم باطنه وهو يتأمل عبارتها أعطنى مما أعطاك الله ! فود أن يشق قلبه ليعطيها بعض الاكتئاب والحقد، ويشق عقله ويعطيها بعض خلاياه الرمادية، التى استوطنها الجنون، آه ياولاد الكلب!

شعر فجأة بأن الأرض تتحرك تحت قدميه للأمام، فعزا ذلك لوعكة صحية من كثرة الوقوف، ولكن صوت الصراخ طغى على المكان مع حشود بشرية تهبط الدرج في ذعر.

ـ زلزاااااال.

جمد في مكانه، ولم يدر ماذا يفعل، ولكنه اندفع بلاوعى مع المندفعين، وخيل إليه أن الرجل المتأنق، مرتدى الكرافتة، تدوسه الأقدام فتمحى أناقته، وتخلع سرواله المكوى بعناية، ونظر أيضا فوجد الفتاة الدميمة تصرخ في هلع وتهتز مؤخرتها بفعل الذعر في حركة طبيعية، لا كما أرادت صاحبتها.

ابتسم باطنه بمرارة، واستسلم للموت كما استسلم لكل شيء فيما سبق!

قال الحكيم

فى زمان سحيق ومكان غير مطروق، ذهب أحد المواطنين إلى حكيم البلاد، وكان يدعى الحكيم" أحووه"، وسأله:
ماذا بعد الموت؟
فلم يبد على الحكيم أى تعبير، وأجاب:
- إن وجدت أحدا عاد بعد الموت للحياة، فاسأله هذا السؤال!
فبدا الانبضان على المواطن، وعاد يسأل:
ولكن ألواح المعظم (إدريس)، تقول إن هناك جنة وهناك نارا وحسابا وعقابا!
فقال" أحووه":
ـ وما أدراك يا بنى أن (إدريس) نفسه كان معظما؟!
: إذن أين اليقين؟
- اليقين رفاهية وطلب للكمال، وما وجدنا الانسان إلا ناقصا.
فبدت أمارات التحدى على الرجل، وصرخ في الحكيم:
إذن أعيث في الأرض فسادا، أسرق ،وأزنى، وأقتل!
فبدا نفاد الصبر على الحكيم "أحووه"، وقال له بلهجة باردة كقرص الطعمية الصلب، الذى فات عليه يوم وليلة:
ـ إن استطعت أن تفعل ذلك في السر، فافعل ولا تفش أمرك وإلا طالك العقاب.
فبدت الصدمة على الرجل، وقال للحكيم:
تحرضنى على الرذيلة؟!
فنظر الحكيم " أحووه"، في عينيه مباشرة، وقال له بلهجة صارمة:

- وما أدراك أن السرقة والقتل والزنا من الرذائل؟! ما أدراك أنها ليست سننا من سنن الكون وقوانين للطبيعة كالرياح والزلازل والبراكين؟!
: أهذا رأيك أيها الحكيم؟ الآن أدركت لماذا يعم الظلم والجور أرضنا؟ أأنت من يستشيرك الملك في كل صغيرة وكبيرة؟! ويل لنا! ويل لنا!
فنظر له" أحووه" في إشفاق قائلا:
ـ لم أرد، وأنا في أرذل العمر أن أخدعك يا رجل هل كانت ستجدى معك النصيحة؟! وهل تعتقد بأنك ستفهم ما لم أفهمه طوال تلك السنين! إن عقلك يشقيك فاتخذه عدوا لا مقياسا للخير أو الشر ولا حد فاصل بينهما، من قلب الخير يولد الشر ومن قلب الشر قد تتولد رحمة تغطى الكون بأسره لا تصغى لصوت الكاهن(معاهم معاهم عليهم عليهم) فمواعظه مجرد كلمات من وحى مهنته وكيف لمن لم يخرج من معبده ويعاقر الدنيا ويجرب كل شيء ويفعل ما نعتبره خيرا ويرتكب ما نتخيله شرا أن تطمئن لكلماته، وتهتدى بهديه وهداه؟!
بدت الحيرة على المواطن (مهموش)، فواصل " أحووه" حديثه قائلا:
- بداخلك عدو إن تضحك يعبس، وإن تعبس يبتسم.
لا تحاول مصادقته ولا تعاديه البتة، والصراع بينكما هو جوهر كآبتك وحيرتك.
الحل أن تستسلم له تماما إن أمرك بالزنا والفسوق زنيت، وإن أشار عليك بالقتال قاتلت، وإن زين لك العدوان بغيت.
لا تجامل ولا تداهن، فلن يصيبك أكثر مما أصابك.
والنفس لا تحسب طعناتها بالمقياس المادي!

مصر عام ٢٠٣٠

تجمع المئات أمام جثة أحد الأشخاص، وقد غطت معالمها الدماء وشوهتها عشرات الطعنات، وتعالت الأصوات فلم يفهم منها سوى بعض العبارات، وخمن أن الشاب حاول سرقة بعض المأكولات من أحد المطاعم المتواضعة بذلك الحى الفقير الواقع في جنوب القاهرة، إلا أنه فشل في الفرار، وتكالب عليه الخلق ممن ضجوا بكثرة اللصوص، فأوسعوه طعنا وضربا.
كاد ينصرف لولا أنه سمع إطلاق نار كثيف، وشاهد الذعر على وجوه المتجمعين، الذين بادروا بالفرار في هلع وعربات نصف نقل محملة بمدافع (الدوشكا) تقترب منهم، ثم هبط منها جمع من المسلحين الملتحين، وشاهد كبيرهم يتوجه نحو الجثة ويتأملها في برود، ثم يستجوب عددا من شهود الحادث، ساد الصمت، والمسلح يلوح برشاشه قائلا في لهجة خطابية مسرحية:
ما فعلتموه هو خطأ شرعى كان يجب أن تسلموه لمسئول الحسبة، حتى يتم القصاص منه بقطع يده!
وبدت الوحشية على وجهه، وهو يكمل:
حذار ان يتكرر هذا مرة أخرى! والآن تفرقوا وليذهب كل إلى عمله.. هيا.
كان يتابع ذلك المشهد في غم وكآبة، ثم ذهب لمنزله وفتح التلفاز يتابع أخبار آخر المعارك، التى تدور في ربوع وطنه، يشاهد الخبر في قناة وعكسه في قناة أخرى، وكاد يجن من

تضارب الأخبار، والتقط هاتفه المحمول واتصل بأحد أصدقائه في محافظة الغربية، ودارت بينهما المحادثة التالية.
: إيه الأخبار عندك يا محمد؟ الجزيرة بتقول إن داعش دخلت طنطا وسيطرت على منطقة قحافة وقرى المدخل الجنوبى كلها؟
ـ لسه مدخلوش، كتايب الجيش بتقاوم وبتقصف مدرعاتهم على الطريق السريع، عدد صغير دخل قحافة وحرب شوارع هناك.
: ربنا معاكم يا محمد وينصركم، هما مصرين يدخلوا طنطا ويهدموا مسجد السيد البدوى زى ما هدموا جامع الحسين عندنا، باعتبار إنها مساجد شرك بالله!
- وإيه الأخبار عندكم في القاهرة؟
: زى الزفت، الجيش متحصن في مطار ألماظة، ومتحاصر من كل ناحية، والطيران بيضرب فيهم كل شوية، لكن مبيخلصوش.. عددهم كبير، وكل السلفيين خدوا سلاح وانضموا ليهم، مع شوية المسجلين خطر والبلطجية. تخيل إن (سوكة محششة)، وأنا عارفه أكبر مسجل مخدرات واغتصاب عندنا في الحى، ضرب دقن وبقى أمير المنطقة عندنا، وكان زعلان إننا موتنا حرامى النهاردة.
ـ ويخلق ما لا تعلمون!
: كنا نعلم أكيد بس كنا بنستهبل!
أغلق هاتفه، وسرح فكره في السنوات القليلة الفائتة يسترجع ذكر ما جرى، وما كان وكيف وصل وطنه لتلك النقطة الحرجة يتناوشه العدو من الداخل والخارج ياللهول! أعظم المتشائمين لم يكن يتخيل ما يحدث الآن، هذا كابوس وسيصحو منه

بالتأكيد. تذكر بمرارة كيف تدهورت الأحوال الاقتصادية في بلاده، وكيف عجز النظام عن التصدى للفساد والفقر، وكيف تدهورت عملة بلاده تدهورا مخيفا لم تجد معه المعونات والهبات، خاصة بعد تدهور أحوال الخليج وسقوط أسرة أل سعود بنجد والحجاز بفعل المغامرات الحربية الطائشة لمليكها المجنون، وعندما حاول بعض العقلاء بالمملكة إصلاح الأوضاع كان الأوان قد فات، وخرج مارد الفتنة من عقاله يلتهم المنطقة. تذكر كيف أفلست البنوك، وعم السخط البلاد، وخرج الناس وليس في نيتهم الخروج، ولكنهم لم يكن لديهم خيار آخر، ففى الركون موت وفى الخروج أيضا موت! تذكر كيف بادرت الفئران بالهروب من السفينة الغارقة، وكيف امتلأت فنادق أوروبا بعشرات الألاف من أثرياء المصريين ممن آثروا السلامة وخرجوا بأموالهم وعيالهم اتقاءا لغضبة الفقراء، التى لم تبق ولم تذر.

تذكر كيف نهبت الحوانيت والمصارف، كيف سرقت السيارات علنا، وفى وضح النهار كيف كان من الصعب على المرء أن يخرج من منزله ويعود سالما بعد انتشار الآلاف من اللصوص والمجرمين في كل الشوارع والمدن والقرى، كيف كثرت حوادث القتل والثأر، ولم تستطع قوات الجيش السيطرة على الأوضاع، فاكتفت بالانتشار في المواقع المهمة فقط، ولم تفلح الحكومة الجديدة في تهدئة الأوضاع واستعادة الهدوء مرة أخرى، ليس لأن الناس أدركت أنها خدعة جديدة ولكن لأن الأمور وصلت لمعادلة صعبة، أن محاولة الإصلاح عاقبتها مثل ترك الأمور على ما هى عليه، ولكن المثير في الأمر أن

عاملا آخر كان موجودا من قبل ولكنه تطور بصورة مخيفة حتى قضى على البقية الباقية من الأمل القليل لدى المصريين.
هذا العامل الآخر هو تنظيم داعش، الذى يقاتل الجيش المصرى في حرب شعواء بسيناء، وكيف أن الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد أثرت على معنويات القوات المسلحة بسيناء، فكيف لضابط أو مجند أن يقاتل وأهله بالوجه البحرى أو القبلى أو القاهرة والإسكندرية لا يأمن عليهم، والأخبار السيئة تتوارد إليهم يوما بعد يوم، وما هى إلا أسابيع قليلة حتى فوجئ المصريون بأن داعش قد بسطت سيطرتها على رفح والشيخ زويد والعريش وبئر العبد بسهولة تامة، حيث انضم إليهم علنا، وفى اللحظة المناسبة، الآلاف من خلاياهم النائمة من البدو والسلفيين والمهربين وتجار المخدرات ممن تضررت مصالحهم بفعل التضييق على الأنفاق، ومسالك التهريب، وانسحبت قوات الجيش حتى نفق الشهيد (أحمد حمدى)على مشارف قناة السويس، وعبرت قوات التنظيم جبال وسط سيناء وسيطرت خلاياه على الطور ودهب ونويبع و شرم الشيخ، ولم تفلح الضربات الجوية في القضاء عليهم.
واستغلت إسرائيل الحدث كعادتها، وأعلنت أنها لن تقف مكتوفة الأيدى إزاء التهديدات على حدودها الجنوبية، وعاث الطيران الإسرائيلى فسادا، وانتهك المجال الجوى فوق سيناء، بل وتواترت الأنباء أن قوات إسرائيلية خاصة موجودة بطابا وشرم الشيخ، وأن المستشارين العسكريين الإسرائيليين توغلوا وسط تنظيم داعش، وأن سيناء أضحت فعليا تحت السيطرة الإسرائيلية.

حاول المسئولون بالمجلس العسكرى، من قادة الأفرع بالقوات المسلحة، استعادة النظام في البلاد، إلا أن عنف المفاجأة باغت الجميع.
مناطق كاملة في البلاد خرجت على السيطرة، وظهر التيار السلفى الوهابى كرأس حربة، وأعلن مبايعته لداعش وإعلانه الحرب على الجيش المصرى، وسقطت المناطق واحدة وراء الأخرى جنوب القاهرة منطقة غرب، وجنوب الإسكندرية، منطقة الهرم وكرداسة وناهيا وبولاق بالجيزة، مراكز كاملة بالصعيد، قرى ومدن بالوجه البحرى، كان الوضع كارثيا، تتوجه قوات الجيش لمكان لتفاجأ بالحريق قد اندلع في مكان آخر، حتى صار لزاما على قوات الجيش التوزع على مئات، بل آلاف النقاط والكمائن للسيطرة على الوضع.
وسقط عشرات الألاف من القتلى، وجرت مذابح رهيبة للمسيحيين والصوفية ،وكل من يشتبه في انتمائه للجيش أو الشرطة، وصار القتل على الهوية شيئا معتادا.
تدفقت الأسلحة على الإرهابيين من كل صوب، خاصة من حدود ليبيا والسودان والحدود البحرية وعبر البحر الأحمر بتمويل إسرائيلى أمريكى قطرى تركى.
أصبحت البلاد بؤرة معارك مشتعلة، وظهرت عشرات الفصائل والتنظيمات، فلداعش والسلفيين تنظيمهم، وكتائب(حسن البنا)، التابعة للجناح العسكرى للإخوان المسلمين، وكتائب شيوعية وأخرى ناصرية، وكتائب مسيحية أرثوذوكسية، وكاثوليكية، وكتائب نوبية، بل وعمدت بعض المناطق إلى تشكيل مجموعاتها المسلحة الخاصة.

كان للجيش المصرى سيطرته الصورية على البلاد، حيث تواجدت فرقه الخاصة وقواته في المراكز المهمة كوسط القاهرة ومبنى التليفزيون ومناطق السفارات والمطارات العسكرية، التى يشن منها الطيران الحربى غاراته على المجموعات المسلحة.

وذات مساء ظهر رئيس البلاد عبر الشاشات في خطاب موجه لأفراد الشعب جاء فيه:

" أعزائى المواطنون الشرفاء.

أتوجه إليكم في تلك اللحظات العصيبة، التى يمر بها الوطن، ناعيا إليكم آلاف الشهداء ممن سقطوا وهم يدفعون عن تراب الوطن ضد تلك الهجمة الإرهابية الممولة من أعدائنا، وساندها الوهابيون والمتطرفون ممن أساءوا إلى إسلامنا الحنيف وهددوا وحدتنا الوطنية.

أتعهد إليكم بمقاومة الفساد، والقضاء على المحتكرين، وتجار السوق السوداء ممن استغلوا الأزمة، وخانوا الوطن لزيادة مكاسبهم.

كما أتعهد بتوزيع السلاح على كل من يرغب في الانضمام إلى لجان الدفاع الوطنى لقتال الخوارج والإرهابيين، وحتى يظل كل فرد آمنا على أفراد أسرته وماله.

كما نشجب الاعتداء الإسرائيلى على حدودنا، ونستنكر وجود قوات إسرائيلية بسيناء، ونعلن من طرف واحد نهاية معاهدة كامب ديفيد، ولن نتفاوض مع إسرائيل واللجنة الرباعية الدولية، إلا بعد جلاء أخر جندى إسرائيلى من سيناء.

كما نعلن للعالم أن الملاحة آمنة في قناة السويس، وأن قواتنا توسع مدى الأمان حول القناة، وتطارد الإرهابيين، وما هى إلا مسألة وقت حتى تعود محافظات القناة لحضن الوطن من جديد.
وانتهى الخطاب بالسلام الوطنى على خلفية من العلم المصرى ذى الألوان الثلاثة يتوسط بياضها النسر فسالت دموعه، وخيل إليه أنها تختلط بدموع النسر العليل.

الجدار

يحكى أن في بلد ناء على أطراف الأرض كانت هناك أسطورة توارثتها الأجيال جيل عن جيل عن جدار شاهق يمتد منذ قديم الأزل. في تلك البقعة اعتاد القوم منذ ألاف السنين على التبرك به وزيارته باعتبار أنه آخر نقطة امتد إليها العمران، ولا أحد يعلم ما وراءه، وإن كانت الأقاويل تجمع أن وراءه عالما آخر تحكمه قوى خفية لم يرها أحد من قبل، ولم يروا لها أثرا.
كان الجدار يمتد ويمتد لأعلى بفعل الزمن، لا يتأثر بعوامل التعرية، لا تهدمه الرياح، ولا تقوى عليه الزلازل، وهو ما زاد من مهابته في نفوس القوم.
وفى يوم من الأيام اجتمع نفر في أحد البيوت، ودار بينهم الحوار التالى:
هل تصدقون يا قوم ما يقال؟
شخر أحدهم، وهتف:
كلا لا نصدق وما ينبغى أن نصدق!
ـ، العقل يقول إن هناك أرضا خارج الجدار وحياة أخرى، ولكن الحراس عليهم اللعنة يقتلون كل من يحاول الالتفاف حوله!
قال أحدهم، وكان يبدو عليه أنهم يأتمرون بأمره.
: لن نستسلم لخزعبلاتهم! بالتأكيد هناك أرض خارجه، فلو كان كما يزعمون بأن المحيط وراءه لتهدم منذ زمن بفعل الأمواج الهادرة!
ـ هل سمعتم صوتا يا سادة، وأنتم تضعون أذانكم على الجدار في يوم التبرك الأعظم؟!

فأجابوا في صوت واحد:
- كلا لم نسمع شيئا.
: إذن سندفع حياتنا ثمنا لمعرفة سر الأسرار!
وبعد فترة وجيزة، فوجئ حراس الجدار بقذائف تنطلق من مسافات متفاوتة، واختارت أماكن معينة بالجدار الصلب الشاهق بحيث ان المهاجمين إختاروا أن يصيبوا بعض الاماكن بعدة قذائف في آن واحد، وانطلقت الصرخات الحادة، وانطلقت الخلائق مذعورة تهرع نحو الجدار تحميه بأجسادها ومات في ذلك اليوم خلق كثير.
والعجيب ان عددا قليلا للغاية في وسط الهرج والمرج الحادثين بفعل القصف والزحام لاحظوا طاقات من النور تخرج من ثقوب الجدار، بعدما أصابته القذائف، قبل أن يتكتل الحراس ويبعدوا القوم عن الجدار ويداروا الثقوب بأجسادهم، ثم تم إعلان حظر التجوال .
وتم إصلاح الأضرار الناتجة عن قصف الجدار، بل، ويالللعجب، أضحت الأماكن التى أصابتها الشروخ أكثر الأماكن قدسية، ويستولى عليها الزحام في يوم التبرك الأعظم.
واجتمع القوم، السالف ذكرهم، مرة أخرى وقال كبيرهم بمرارة:
أولاد الزنا لا يتعلمون!
- هل نعيد الكرة ياسيدى؟!
: من المستحيل أن ننجح في هذا، فقد أخذ الحراس أهبتهم والمحاولة القادمة انتحار مؤكد.
- ولكننا تأكدنا يا سيدى أننا على حق!

: لن أنسى أبدا ذلك النور القادم من الوراء، ولا تلك النسمات الحانية لقد كان حلما جميلا!
ـ تخيل سيدى أنهم استمسكوا بتخاريفهم أكثر وأكثر، مع أن كثيرين منهم تأكدوا أن وراء الأكمة ما وراءها!
: في التكذيب هلاكهم المحتوم!
ـ وماذا نفعل مع القوم؟
: لا أمل في جيلنا الحالى، ربما يستطيع أبناؤنا هدم ذلك الجدار أو أحفادهم، فالنور حتما لن ينتظر!

ـ يبدو أن اللحظة التى ننتظرها لإعلاء كلمة الحق حانت!
هكذا قال الريس (إسلام) لزملائه، وهم يجتمعون بعد صلاة العشاء في حلقة ضيقة بركن المسجد، وما لبث أحد الشباب الجالسين حوله أن عقب قائلا:
كم كنت أنتظر تلك اللحظة المباركة، وها هو جيش البلاد ينهمك في معاركه الحدودية، ولا بد لنا من ملء الفراغ بالداخل.
ـ إذن نطلق النفير، ونسحب أسلحتنا من المخازن الآن، ونعلن الإمارة!
التفت إليه الريس (إسلام)بغضب قائلا:
لا تكن متسرعا يا(طه)، فردة فعل الناس نحن نجهلها، الأمور لا تؤخذ هكذا، سنبدأ منذ الآن العمل، وسنبعث إشارات أننا الفاعلون، حتى نلقى الرعب في قلوب القوم الظالمين، وعندما تحين لحظة المواجهة المباشرة تكون الغلبة لنا.
ـ الآن أدركت ماذا تقصد سيدى، وأوافقك الرأى، فالحرب النفسية أقوى من النار والرصاص.
: هذا ما أقصده يا(طه) سنبدأ بما لا يستفز العامة، وما يجعلنا نكتسب تأييدهم، فأنت تدرك أنهم في الجهل يعمهون، هم بحر هادر لا بد من ركوب موجته، حتى لا نغرق جميعا!
ـ وماذا تقترح سيدى؟
شد الريس (إسلام) قامته قائلا:

سنبدأ بالثلاثة الذين تدور الشبهات حول تشيعهم وكفرهم، سنقتلهم شر قتلة، ولا أظن أحدا سيعترض من أهالى الحى.
ـ نِعم الرأى سيدى!
برقت عيناه، واسودت لحيته أكثر ! واستطرد قائلا:
ولا مانع من قتل عدد من المسيحيينن حتى ندفعهم للهجرة خارج المنطقة.
هتفوا جميعا:
-لموت للكافرين، الموت للكافرين.
وقف الريس(إسلام)، إيذانا بانتهاء الاجتماع قائلا:
هيا استعدوا، وغدا نبدأ التنفيذ.

****

كانت المنطقة مثلها مثل كثير من مناطق البلاد على شفا حفرة من النار تتأمل المشهد بها، فتدرك أن بقايا دولة ونظام كانا موجودين هنا. اليوم يتربص الجميع بالجميع لا شرطة ولا جيش، لا يأمن المرء على نفسه وعياله في هذا الزمن الأسود، وانتشر السلب والنهب وحوادث الاختطاف حتى فوجئ الناس بحوادث قتل ممنهجة تطال أشخاصا معينين تم وضعهم في قالب معاد لأعضاء الحركة الفاعلين، ولكنهم آثروا السكوت طالما لم يطلهم أذى مباشر.
: الآن نبدأ الخطوة الثانية!
قالها الريس (إسلام) لأتباعه، والحبور يكسو وجهه، ثم عقب قائلا:
- تخلصنا من رموز الكفر الآن، فهم المسيحيون الرسالة، فأخلوا كنائسهم، وبدأوا بمغادرة الحى.

: هناك مشكلة قد تواجهنا يا سيدى.
فالتفت الرجل إلى تابعه قائلا:
- وماهى ياشيخ(طه)؟
: حوادث السلب والنهب، البلطجية يعيثون فسادا في الحى بلا رادع.
قهقه الريس(إسلام) في واحدة من المرات القليلة النادرة، التى رؤى فيها، وهو يضحك، ثم ربت على كتف (طه) قائلا:
- هذه ليست بمشكلة، بل نقطة قوة تضاف لصالحنا!
: كيف ياشيخنا؟!
المجرمون عددهم كبير، ويمتلكون السلاح، والمواجهة المباشرة معهم ستكبدنا خسائر كبيرة
- ومن قال لك إننا سنواجههم ؟!
هؤلاء هم المدد، الذى ننتظره، ولكى تفهم ماذا أعنى يجب أن تعلم أنهم يخشوننا بشدة، فهم يعلمون أننا نمتلك الإيمان والعقيدة والقوة، كل ما هنالك أننا سنضمهم لصفوفنا، وهم سيرحبون بذلك هل تعلم لماذا؟
لأن معظمهم يشعر بالذنب مما يقترفه، فنأتى نحن ونعطيهم غطاء شرعيا لما يفعلونه، سيتحول السلب والنهب لجمع غنائم الكفار، والاختطاف سيصير سبيا، وهكذا سيرحبون بالانضمام إلينا ونوزع عليهم السلاح والمال، ونعلمهم أصول ديننا وقواعده، فنكسب فيهم ثواب الأخرة، ونكتسب نحن بهم ثواب الدنيا!
نظروا له في انبهار وإجلال، وتزاحموا لتقبيل يديه!
****

أعلن الريس (إسلام) المنطقة إمارة إسلامية خالصة، ونصب نفسه أميرا، وانتشر أتباعه بالحى يحملون السلاح، وينظمون دوريات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويفرضون الضرائب والإتاوات وينكلون بمخالفيهم وينعتونهم بالخوارج، وأضحى مشهد الذبح في ساحة الحى الكبرى مشهدا عاديا لا يستوقف حتى الأطفال!

****

شهد مبنى وزارة الدفاع في(وهابستان) اجتماعا عاصفا، ضم وزير الدفاع ورئيس الأركان، بالإضافة لمدير المخابرات العامة ووزير الداخلية، وتبادل الجميع الاتهامات، فيما وصل إليه حال البلاد من سيطرة التيار السلفى الوهابى على مناطق متعددة داخل العاصمة وأقاليم البلاد، وقال وزير الدفاع:

نحن لسنا هنا يا سادة لنتبادل الاتهامات، ونحمل بعضنا المسئولية، فيما آلت إليه الأمور، فما حدث ببلادنا سبق وإن حدث في بلدان مجاورة، نحن الآن نجتمع لنضع خطة عمل مباشرة لمواجهة تلك الجماعات المتطرفة والقضاء عليها!

قال مدير المخابرات:

سبق سيدى الفاضل أن نبهنا لخطورة الوضع منذ سنوات، فأسلوبهم واحد، قضم الأطراف وإشغال الجيش في نقاط متعددة، ثم الاستيلاء على الكتل السكانية اعتمادا على أتباعهم، ومنظرى مذهبهم.

قاطعه وزير الداخلية قائلا:

نحن كنا نعلم كل شىء، وأمننا السياسى لديه قائمة كاملة بأسماء زعمائهم، و....

فقال له:
وماذا فعلتم؟ لماذا لم تلقوا بهم في غياهب السجون؟!
فرد وزير الداخلية قائلا:
: عددهم ليس بالقليل، وخطوة كهذه تحتاج لقرار سياسى لا أمنى، لأنكم تعلمون أن هناك دولا كنا نرتبط بمصالح اقتصادية معها تحميهم وتمدهم بالمال، والآن بعد اختراق حدودنا تؤيدهم بالسلاح والرجال.
قال مدير المخابرات، موجها حديثه لرئيس الأركان:
هل تذكر سيدى ما ذكرته لك عن اقتراحى منذ سنوات بخصوص تعديل العمل بالقوات المسلحة؟ لا زلت أعتبر اقتراحى ساريا.
التفت وزير الدفاع بوجه محتقن لرئيس أركانه قائلا:
ولماذا لم تعلمنى ذلك في حينه يا سيادة الفريق؟
تراجع رئيس الأركان في مقعده قائلا:
للأسف لم أعتبر الورقة المقدمة من سيادة رئيس الاستخبارات ذات أهمية، لأننى لم أتوقع أن تأخذ الأمور هذا المنحى الخطير!
نظر له وزير الدفاع نظرة نارية، ثم التفت لمدير المخابرات قائلا:
هل لك أن تعيد علينا الآن اقتراحك، الذى قدمته لرئيس الأركان السابق يا سيادة اللواء؟!
انكمش رئيس الأركان في مكانه، وداری مدير المخابرات نظرة شامتة، ثم قال:

اقتراحى في حينه كان عن ضرورة تغيير استراتيجية وتكنيك الحيش في القتال، فالحروب القادمة في تصورنا ليست صدام جيوش متكافئة، ولا تتطلب قوة نيرانية هائلة، ولا كم السلاح المرعب الذى أرهق ميزانية البلاد، بل كان تصورنا أن الحرب القادمة هى ببساطة حرب مدن ولا بد من تدريب أفراد قواتنا المسلحة على تلك الحرب وعلى اكتشاف الأنفاق واقتحامها، كما نصحنا بضرورة حل ألوية مدرعة بالكامل لمصلحة زيادة عدد الألوية، والقوات الخاصة المدربة على الاقتحام والقنص، كما أننا اقترحنا تحويل جزء كبير من قوات الاحتياط إلى ما يسمى بقوات الدفاع الوطنى مهمتها الأساسية التمركز في المدن والقرى والأحياء بحيث لو حدث مثلما حدث الآن من استنزاف حرب الحدود لقواتنا تكون تلك القوات مستعدة لحفظ الأمن والنظام، ومنع سيطرة أى فصيل على المدن والقرى، وضربنا في ظهورنا كما يحدث الآن.

بدا التفكر على وجه وزير الدفاع، الذي قال:

لا أنكر وجاهة اقتراحك، ولكن ألا ترى أنه جاء متأخرا!

نظر مدير المخابرات بازدراء لرئيس الأركان قائلا:

أدرك ذلك، ولكننا نستطيع تفعيل بعض البنود، مثل تكوين لجان للدفاع الوطنى وتسليحها، ووضع ضباط من الجيش لقيادتها، وتدريب المدنيين على أعمال القتال والحراسة، سيأخذ ذلك وقتا أعلم هذا، ولكننا يجب أن نبدأ من الآن.

أمّن وزير الدفاع على كلامه، قائلا:

نعم لا بد أن نبدأ الآن، قبل أن ينتهى الوطن على أيدى تلك الزمرة الحقيرة!

وما زال الاجتماع منعقدا حتى اللحظة الراهنة!

المثلث

كنت شاهدا على ما حدث في تلك المنطقة الصحراوية، منذ سنوات بعيدة، وأحببت أن أقصه عليكم.
كنت طبيبا حديث التخرج، ألقتنى الحكومة في مركز طبى ناءٍ على أطراف القاهرة، داخل منطقة حديثة الإنشاء داخل صحراء حلوان تدعى منطقة المثلث، ولمن لا يعرف منطقة المثلث، أقول له باختصار إنها منطقة حديثة لا يتجاوز عمرها خمسة عشر أو عشرين عاما على أكثر تقدير، وهى منطقة صغيرة لا تتعدى مساحتها عدة كيلو مترات مربعة وسط صحراء جنوب حلوان، وتقع بين مدينة حلوان ومدينة ١٥ مايو، وتتكون من بلوكات قبيحة الشكل أعدتها الحكومة على عجل لتسكين المواطنين الكادحين ممن هدمت منازلهم داخل القاهرة، وعوضتهم بمسكن بديل داخل تلك المنطقة المقفرة.
كما كانت أيضا تلك البلوكات ملاذا لمن لا يجدون مسكنا لائقا محترما، فسكنوا المنطقة لرخص أسعارها وهروب أصحاب الشقق منها، وتأجيرها من الباطن بأى ثمن!
كان هناك مركز طبى صغير، ومدرسة ابتدائية ومسجد وموقف ميكروباصات عشوائى صغير، هو كل ما يربط المنطقة بالعالم الخارجى.
انقبض قلبى بشدة عند رؤية المنطقة لأول مرة، خصوصا في الليل، حيث تسمع نباح الكلاب في كل مكان، وتتناهى لأسماعك أصوات إطلاق نار وصراخ وعويل لا تعلم مصدرها، تصمت فجأة، ثم تعود لترتفع من جديد، وهكذا.

عند دخولك وخروجك من المنطقة سيسترعى انتباهك أن سائقى الميكروباص، عند أماكن معينة، فوق الطريق الأسفلتى الضيق، الذى يربط المنطقة بحلوان، يخرجون عن الأسفلت للرمال على يمين أو يسار الطريق، ثم يعودون مرة أخرى على الأسفلت، وكأنهم يتفادون شيئا ما، وعلمت، فيما بعد، أن الطريق ملىء بقطع المسامير والرخام الصغيرة في أماكن محددة يحفظها السائقون وسكان المنطقة عن ظهر قلب لقطع الطريق على سيارات الشرطة، التى قد تأتى للمنطقة للقبض على أحد المجرمين، ومأأكثرهم داخل المثلث!

عانيت الأمرين في البداية، واستمعت لنصيحة عم(مغاورى)، غفير المركز الطبى، الذى نصحنى بعدم الاشتباك ولو كلاميا مع أى مريض، أو أى أحد من مرافقيه، لأن المنطقة مليئة بالمجرمين والمسجلين خطر، وأوكار المخدرات والدعارة، وكل ما لذ وطاب مما يخطر وما لا يخطر على البال!

كان عملى يتضمن جزءا صباحيا، ولكن الأخطر منه هو الليالى، التى كنت مجبرا على البيات فيها داخل مبنى المركز في السكن المعد خصيصا للأطباء.

كانت الليلة تمر على كألف ليلة وليلة، ينهشنى الملل، وفى بعض الليالى يعضنى الجوع بأنيابه، لأن أقرب مكان بين المركز وأى محل مأهول بالبضائع أو الطعام يستلزم المشى مسافة كيلومتر على الأقل، وسط سكون مخيف وكمائن قاتلة، ولن تعدم مجرما أو أكثر قد يستوقفونك بغرض الخطف أو السرقة!

وفى ليلة ليلاء فوجئت أنا والممرض العامل بالمكان بشاب صغير يقتحم استقبال المركز، وعم مغاورى الغفير يجاهد للحاق به، وقد غطى الدم وجهه، فلم أتبين ملامحه، وصرخ فينا قائلا:

الحقونى بسرعة هيموتونى !

ابتلعت ريقى، قائلا، وأنا أهرع لتحضير أدوات الجراحة لخياطة جروحه، والكشف عليه:

هما مين دول اللى هيموتوك؟ وفيه ايه؟

ـ حمادة الأعمش ضربنى وسيح دمى، وحياة امى ما انا سايبه هموته ابن (-----).

كنت بدأت في خياطة جروحه القطعية المتعددة، وأنا أتبادل معه الحديث، وفجأة انتفض الجميع على دوى إطلاق عيارات نارية خارج المكان، واقتحم شخصان، تبدو سمات الإجرام على وجهيهما واضحة جلية، المركز، وكان أولهما يحمل طبنجة محلية الصنع، والثانى يشهر سيفا بتارا يناهز طوله المتر ونصف المتر، وخمنت أن صلاح الدين الأيوبى لو رأى ذلك السيف لسال لعابه عليه، وخاض به معركة حطين.

ـ أنا قلت برضه إنك أكيد هنا با ابن الوسخة.

شحب وجه الجريح، وامتقع وجهى، بينما اختفى الممرض عن الأنظار، وتهدل كتفا عم مغاورى العجوز، ولسان حاله يقول(ايه اللى جابك هنا يابنى؟).

وجهت كلامى للمقتحمين قائلا، في لهجة حاولت أن تبدو حازمة، ولكنها جاءت رغما عنى تحمل بعض الهمس الرقيق!

: انتوا ازاى تخشوا المكان هنا بالسلاح، ده مركز محترم؟!

شخر صاحب السيف المتطاول في البنيان قائلا:
- احنا نخش أى حتة ونلقح فيها الجتة!
بينما ابتسم صاحب الطبنجة قائلا في سخرية:
- حنا جايين نقيس الضغط حقنا، ولا مش حقنا!
أدركت أن الليلة لن تمر سوى بنهر من الدم، ولا نجدة من الممكن أن تظهر في الأفق، وأقرب مركز شرطة يبعد ٣٠ كيلومتر، وإذا جاءت النجدة، فلن تفلت حتما من كمين المسامير على الطريق!
قلت لهما في يأس:
يا رجالة كل حاجة تتحل بالعقل، فهمونى فيه ايه!
وقلت للشاب الجريح:
: تعرفهم يا كابتن فيه بينك، وبينهم حاجة!
قال في لهجة المحكوم عليه بالاعدام:
: مهو ده حماده الأعمش؟
كدت ألطم على وجهى قائلا:
حماده الأعمش اللى شرحك، وعمل فيك كده؟
ووجهت حديثى للأخ حماده قائلا:
طب يا سعادة الباشا انت شرحته، وخليت وشه شوارع عايز منه ايه تانى؟!
وفجأة رفع الأعمش سيفه لأعلى، وسط ذهول الجميع وهوى به على رأس الشاب، فتفجرت الدماء من جديد من جروحه، التى قمت بتضميدها للتو، وتناثر الدم على وجهى، وعلى ملابس عم مغاورى، وتراجعنا للخلف غير مصدقين ما نراه أمامنا، وتوالت ضربات حماده الأعمش على الشاب عشرات

الطعنات، وكان جسد الشاب ينتفض، والدماء تغرق أرضية المكان، وختم صاحب حماده ليلة القتل والدم بطلقة استقرت في رأس الشاب وأردته قتيلا على الفور.
ساد صمت ثقيل على المكان، ولم أتفوه بأى كلمة، بينما سالت دمعة على خد عم مغاورى، ونظرت لحماده ورفيقه نظرة تحمل مقتا شديدا، وصرخت في هستيريا:
ليه كده؟هوه عملكم ايه؟
ـ لو حد نام مع مراتك يا دكتور هتعمل فيه ايه؟
ثم انطلق خارجا هو ورفيقه لا يلويان على شيء!
وصلت الشرطة إلى المكان، بعد حوالى ست ساعات، أى في تمام الثامنة صباحا، وتمت معاينة مسرح الجريمة.
وانتقلت أنا وعم مغاورى معهم لقسم شرطة حلوان للإدلاء بأقوالى، وعلمت من بعض المخبرين بالمكان أن حماده الأعمش هو عديل القتيل، وكانت بينهم خلافات مادية، ويبدو أن القتيل قد أنشأ علاقة مع زوجة حماده، مما أدى لمصرعه.
الغريب أن المخبرين أكدوا لى أن ثلاثتهم مسجلون خطر، وهاربون من أحكام غيابية بعشرات السنوات، وأنهم لجأوا لمنطقة المثلث لأنها منطقة نائية متطرفة صالحة للاختباء، وينعدم فيها الوجود الأمنى تماما، وعلمت أيضا منهم بأن المئات مثل الأعمش يتجولون في المنطقة، ويعقدون صفقاتهم وسط الصحراء بحرية تامة، وتحت ضوء القمر والنجوم في الليالى الصافية!
كنت أزمعت على الهرب، ولكن بقى لى عدة أيام، قبل تنفيذ قرار النقل، فقبلت العودة للمكان على مضض.

وفى نهار أحد الأيام كنت أوقع الكشف الطبى على شاب في منتصف الثلاثينيات، وبدت سيماء الاحترام والتربية على وجهه، فاستبقيته قائلا:
حضرتك بتشتغل إيه؟
أجابنى قائلا:
- مهندس مدنى في جهازتعمير ١٥ مايو.
: أنا آسف على السؤال يا باشمهندس، بس إيه اللى جابك هنا، شكلك مش وش بهدلة؟
ضحك ضحكة مكتومة، وقال بمرارة:
- لما مرتبك ممكن يجبلك شقة بعد ١٥ سنة تحويش، ولما تكون خاطب بقالك ٣ سنين، ومش لاقى شقة هتعمل إيه؟
أنا مأجر شقة هنا، يعني مش تمليك كمان، غير كده مكنتش هاتجوز من أساسه.
كدت أقول له ملعون أبو الجواز اللى ممكن يجيبك جنب الأعمش واخواته، ده كويس ان مراتك محدش اغتصبها لحد دلوقتى!
تنحنحت في حرج وواسيته قائلا:
انا مقدر ظروفك، وربنا يعينك، بس الحياة هنا عذاب، مستحيل طبعا تطلع من بيتك بالليل؟
- تعرف يا دكتور مصيبة البلد دى ايه؟
لا اللى فوق بيرحمك ولا اللى تحت بيرحمك! لا احنا ولاد ذوات نقدر نحمى نفسنا ببودى جاردات وبفلوسنا، ولا احنا بلطجية زى الكلاب اللى ماليين السكك هنا، وكلهم عزوة لبعض، والحكومة نفسها مش قادرة عليهم، احنا الطبقة

المتوسطة اللى بتقع، ومالناش حد غير ربنا، امبارح انا كنت هعيط، تخيل لما سواق ميكروباص سوابق يهيننى ويمسح بكرامتى الأرض قدام مراتى، ومعرفش أرد عليه لأنى لو رديت عليه هتعور أو اتقتل، ويمكن مراتى ينوبها من الحب جانب، أنا بموت في اليوم ميت مرة، ومستحمل وكتير زيى مستحمل عشان عيشة هيه أساسا مش عيشة، ومترضاش بيها الكلاب!

أصابتنى كلماته باكتئاب مزمن لازمنى لسنوات طوال، وكنت قد أزمعت على قضاء أيامى الباقية هنا حتى موعد الرحيل المحتم بنهاية الشهر، وكانت قدمى في الليالى الطويلة اعتادت الذهاب لمقهى صغير هو أشبه بغرزة صغيرة تبعد حوالى ٥٠٠ متر عن المركز، كنت أقطعها، وأنا أحمل مشرطا في جيبى للدفاع عن نفسى ضد أى هجوم مفاجئ، وتوطدت عرى الصداقة بينى وبين عم عرفة، صاحب المقهى، وهو رجل يبلغ السبعين من العمر، ولكنه يتمتع بقوة ونشاط رجل في الخمسين، وكنت أقضى بالمقهى ساعتين أو ثلاثة، حتى يغلق المقهى أبوابه، ثم يقوم عم عرفة-وجميع أهل المنطقة يعرفونه- بتوصيلى الى مسكنى بالمركز على وعد بلقاء قادم في الغد.

وفى ليلة ليلاء برزت فيها النجوم من خلف التلال على مرمى البصر، وكان منظرا لم أعتده من قبل أضفى على جلستى بالمقهى رونقا مثيرا، وكنت اعتدت تدخين النارجيلة وتدخين الحجر المحشو، الذى برع عم عرفة في صنعه، وجذب إليه العشرات من سكان المنطقة وخارجها، حيث كان الرجل يصنع مزيجا عجيبا وخلطة سرية تتكون من معسل السلوم مع نتف

من الحشيش الأصلى وأقراص مطحونة لا أعلم ماهيتها، حتى الآن كنت بمجرد تدخين الحجر الأول أشعر بنشوة هائلة وخفة روح مذهلة، ويخيل الى أن عقلى ينطلق كالمذنب الفضائى يخترق النجوم خلف التل، ثم يعود إلى المقهى ليستقر قليلا، ويطالب بغذائه، بعد عناء الرحلة، ثم يعاود الانطلاق مرة أخرى لمجرات أبعد وأبعد داخل الكون الفسيح.

: إنت منين يا عم عرفة؟

كان الرجل أحبنى وفتح لى قلبه، لأنى كنت طبيبه الخاص، كما أننى كنت أجزل له العطاء بسخاء جراء مهارته العالية في صنع وصقل الأحجار الكريمة، وتنهد بمرارة قائلا:

- محسوبك كان معلم وصاحب أحلى قهوة فيكى يامصر القديمة جنب جامع عمرو بن العاص، عشت هناك أحلى أيام، وأهلى وحبايبى وجيرانى كلهم هناك، لكن الزمن يا دكتور قلاب، في يوم البيت لقينا جدرانه اتشرخت ومهندسين الحى جم، وعملوا قرار إزالة ونقلونا كلنا هنا في المزبلة اللى انت شايفها!

تأثرت لكلامه فقلت مهونا عليه:

بكرة تتعود يا عم عرفة، مع إنها منطقة بنت قحبة محدش يتعود عليها بصراحة!

قال الرجل، بعد أن تناول نفسا طويلا من الدخان ونفثه في الهواء الطلق، وتصاعدت أبخرة الحشيش تغطى المكان:

مش عايز اموت هنا، أنا بحاول احوشلى قرشين عشان أشترى، ولو أوضه صغيرة واموت هناك جنب أهلى وناسى!

الله يخرب بيتك فصلتنى! ولكن كلماته الحارة الصادقة انطبعت داخل قلبى، حتى اليوم فسلام عليك يا عم عرفة!

وفى أخر ليلة لى بالمركز، وآخر عهدى بمنطقة المثلث كان صوت عبد الحليم حافظ يتصاعد من المذياع الصغير بجانبى يشدو بقارئة الفنجان، عندما اقتحم الاستقبال رجل تغطى الدماء وجهه، فهرعت لإسعافه، وأحسست بأننى رأيته من قبل، واتسعت عيناى وأنا أشير بسبابتى إلى صدره، واختلج صوتى صارخا:
حماده الأعمش؟!
كان صوته واهنا، وقال والدماء تتناثر من فمه:
ـ أيوه يا باشا الحقنى، انا بموت(سيد زفلطة) عورنى، ورحمة امى لاطلع ميتين أمه ابن(------).
لم أدر بنفسى إلا وضحكة ساخرة عالية تنطلق من حنجرتى امتزجت بصوت العندليب، وهو يقول:
(مقدورك أن تبقى مسجونا بين الماء وبين النار)!!

أن تكون محمد المصري

لست أدرى من أين أبدأ قصتى!
هل أقص عليكم البداية أم النهاية؟
دعونى أؤكد لكم أننى مصاب بالذهول، ولم يجر لى على بال ذلك المصيرالمخيف، الذى انتهيت إليه، فلم تكن أبدا البداية توحى قطعا بتلك النهاية المؤلمة!
لنقص في عجالة عليكم كل شىء من البداية نشأت في أسرة متوسطة في بيت متوسط لأب موظف مثقف وأم موظفة، وكان ترتيبى الابن الأوسط في العائلة، تربيت تربية متوسطة، مثل ملايين الأسر المصرية، حيث الضرورات تتحقق بصعوبة مع لمسة بسيطة للغاية من الرفاهية، طفقت أقرأ وأقرأ وأقرأ، حيث ترك لى أبى مكتبة عامرة بصنوف الكتب، ويبدو لى بعد كل تلك السنوات أن القراءة مثلها مثل أى سلوك بشرى تتدخل الوراثة والجينات تدخلا صارما في تحديده، نشأت تبعا لذلك نشأة انطوائية بحتة تفوقت في دراستى، ودخلت كلية الطب، وكافحت كفاحا مريرا وتزوجت وأنجبت، ولكنى في خضم كل ذلك القتال لم أنتبه لذلك الوحش الرابض بداخلى يستعد للخروج، بعد أن تغذى من شخصيتى وجيناتى واكتمل نموه، وصارت له القدرة على التدمير والفتك بصاحبه!
ذلك الوحش ببساطة هو الاكتئاب، ولمن لا يعلم فالاكتئاب أو سرطان النفس، كما أطلقت عليه يوما ما، هو من أخطر وألعن الأمراض، التى تصيب صاحبها، وقد تدفعه دفعا للانتحار.

كانت هناك بدايات، ولكنى لم ألق لها بالا في خضم انشغالى وسعيى وراء لقمة العيش، ولكن مع الوقت ومع تطور الأحداث وزيادة المسئوليات ظهر الأمر واضحا جليا كانت شخصيتى خجلة انطوائية تفضل العزلة وتهرب من الناس والتجمعات، أجد عسرا في التعبير عن رأيى، أجد عسرا في المواجهة تنتابنى نوبات حادة من فقدان الثقة بالنفس وانهيار المعنويات لا أشعر بالتحمس أو الرغبة في شىء مما يثير اهتمام الآخرين ينتابنى الملل والقنوط لأقل حدث.

كنت قد أدمنت التدخين بشراهة، وتتوالى الضغوط والأحداث، كل ما حلمت به أصبح مستحيل التحقق، أجد عسرا رهيبا في العمل في البيت، في العلاقة مع زوجتى، مع أولادى، إلخ إلخ.

حتى وقعت ذات يوم في هواه!

عقار انتشر فجأة انتشار النار في الهشيم، سمعت عنه الأساطير، وصممت ذات مرة على تجربته

وقد كان!

والعقار، الذى أتحدث عنه هو عقار الترامادول، الذى يدمنه عشرات الملايين في مصر، وأضحى كارثة بكل المقاييس ستدمر هذا البلد إن لم تكن قد دمرته بالفعل!

الترامادول هذا هو مشتق صناعى من مشتقات الأفيون.

والأفيون نبات غريب من شجرة غريبة تمتد جذورها إلى باطن الأرض، وتتغذى كأى شجرة أخرى، ولكن ثمرتها هى ثمرة الخشخاش التى تطرحها ثمرة خطيرة، وداهية ليس كمثلها ثمرة، ثمرة ملكية ذات سحر أخاذ، وآه وآه لمن تذوقها مرة فلن يسلاها أبد الدهر.

شجرة الخشخاش تلك هى من تعطى الافيون والمورفين والكودايين والهيروين، وهى نعمة ربانية لأن تلك المواد هى ببساطة أعظم مسكنات الألم على وجه البسيطة، ولولاها لمزق الألم البشر، ولتم إلغاء تخصص الجراحة من قائمة الطب، على اعتبار أن تلك المواد هى اللاعب الأساسى في تخدير الإنسان، قبل أى عملية جراحية، كما أن تلك المواد تعالج الإنسان من الآلام العنيفة، التى لا يجدى معها أى علاج آخر.

من جرّب تعاطى الأفيون أو أحد مشتقاته كأقراص الترامادول أو الهيروين، أو حقن المورفين سيشعر مع أول جرعة، وكأن نسمة هواء منعشة قادمة من جنات عدن طافت بروحه، فيشحذ الفكر وتنتعش النفس ويمتلئ بسعادة طاغية، ويدرك جيدا ماذا تعنى كلمة النعيم التى قرأها في الكتب السماوية، ولم يجرب معناها على الأرض!

تأثير مخيف عضوى، ولكن الكارثة هى تأثيره النفسى، خجلك سيختفى، وتحل محله جرأة عجيبة لا تدرى متى واتتك وثقة بالنفس مع إحساس بالعظمة قد يبلغ في بعض الأحايين أن تشعر بأنك نبى مرسل من السماء، وأن الناس لا تفهم كلماتك العبقرية ومشاعرك السماوية! ولكن الجمال الأخاذ يسفر عن وجهه القبيح، اللذة الطاغية لها لسعتها المؤلمة، فبمجرد انتهاء مفعول المخدر تنتقل مباشرة من النعيم المقيم إلى نار الله الموقدة! السعادة الطاغية تتحول إلى حزن وكآبة مرعبة، وكأن الدنيا تسترد ما اقترضته منها من سعادة، ويتحول جسدك الذى كان يضج نشاطا إلى خرقة بالية غير قادر على أداء ابسط الأعمال وأيسرها، وتنتابك عدوانية قد ترتكب بسببها جرائم لم

تكن تتخيل مجرد اضطلاعك بها، وتراودك أفكار انتحارية توسوس لك بإنهاء حياتك بأى شكل من الأشكال!

كنت قد وقعت في غرام العقار، وإن لم أكن قد تناولته بصورة منتظمة، ومن ذا الذى يرفض عقارا يزيل خجله ويطلق لسانه ويهدئ من فزع قلبه ويملأه بالراحة والطمأنينة والسكينة، ويلغى من عقله أى شكل من أشكال الكراهية؟!

ببساطة هو عقار يغير من شخصيتك تماما، شخصيتك التى تكرهها وتخجل منها ويجعل منك إنسانا آخر، بل ويجعلك تجد في غيبوبته حلا لكل مشكلة لا حل لها في الواقع، ويجعلك تستصغر أكابر الأمور، كنت واثقا من أننى لن أدمنه لأنى كنت أتناوله على فترات متباعدة نسبيا، وكنت بدأت في تناول الكحوليات على فترات متباعدة، وأعجبنى تأثيرها المهدئ اللذيذ، وحتى عندما دفعتنى في بعض المرات للخروج على الحدود غير اللائقة في السلوك، استعذبت الأمر وعددته خروجا من دائرة الملل المحيطة بى.

وشارب الخمر في بدء الأمر يبدو كثير الحركة، متكلما مشعا حكيما، وهذا مع الكميات البسيطة، وهذه إحدى فوائد الخمر، التى لا يمكن إنكارها، وذكرها القرآن مقرونة بالميسر بأن فيهما منافع للناس!! ولكن للأسف فإثم الخمر أكبر من نفعها لأنه مع الوقت ومع زيادة كمية الشراب يحدث هبوط في كل نشاطات المخ، ويصبح المرء فاقد الهمة بليدا كئيبا منسحبا.

والخمر، ولدهشتكم الشديدة، تحتاج على الأقل لخمس سنوات من التعاطى المنتظم، حتى يتم إدمانها، وكما تتسرب ببطء وخبث الى عقل وجسد المرء، فإن الخلاص منها يتم بصعوبة

هائلة وبأعراض انسحابية مخيفة أقلها العته الكحولى، فيصير مدمنها معتوها منخفض الذكاء، وقد تحدث أعراض عضوية أقلها تليف الكبد، وأخطرها فقدان البصر نتيجة لتأثير الكحول على الأعصاب، خصوصا فيمن يتناولون أنواع الخمر الرخيصة الرديئة مثل البراندى أو منقوع البراطيش الشعبى، والذى تصل نسبة الكحول به الى أكثر من ثلاثين في المائة!

جدير بالذكر أن معظم المخدرات تؤدى الى أمر خطير في النهاية هو الضعف الجنسى، وصعوبة الانتصاب، وقد رأيت بعينى أسرا تنهار بفعل المخدرات وأثارها المرعبة.

نعود إلى قصتى، مع الوقت كانت الجرعات، التى أتناولها تزداد حتى تحقق التأثير المرجو فمشتقات الأفيون عندما يكون الاعتماد عليها نفسيا تحتاج الى زيادة جرعتها مع الوقت، حتى تصل بصاحبها إلى نقطة اللاعودة من بحر الظلمات!

وإدمان أى عقار في رأيى يمر بأربع مراحل، حيث تمثل المرحلة الأولى الرغبة في التجربة، وفى رأيى أن العلاج لو بدأ مع تلك المرحلة، فالنجاح قد يكون كاملا في وقف تعاطى العقار، فتلك المرحلة جديرة بالتأمل والفهم وهى مرحلة التعرف على المخدر كفترة الخطوبة، التى يستكشف فيها المتحابان آفاق الآخر!

المرحلة الثانية هى استمرار للمرحلة الأولى مع الاستسلام التام لتناول العقار، ويسهل ذلك الصحبة السيئة.

المرحلة الثالثة هى الاستعمال المنتظم للعقار، والبدء في تأمين احتياجاتك منه على المدى القريب ويساعد على ذلك توفر العقار والإمكانيات المادية المتاحة للمدمن!

المرحلة الرابعة هى مرحلة الإدمان والاعتماد على المخدر، وهى مرحلة الضياع، حيث يضحى التعاطى جزءا رئيسيا في الحياة وأى محاولة لإبعاد المرء عن تناوله تواجه بمقاومة شرسة ومتوحشة، والمدمن في تلك المرحلة لا يعنيه نبذ الآخرين أو كلمات الانتقاد أو العتاب، فليذهبوا جميعا إلى الجحيم، فالمخدر أفضل منهم جميعا!

اكتشفت في ذعر أننى عندما أتوقف عن تناول العقار لمدة يوم أو يومين أفتقد الحياة تماما، لا توجد لمحة واحدة من السعادة، لو عاد والدى نفسه من الحياة، فلن آبه لذلك، تتوارد الأفكار الحزينة، وتسيطر الكآبة اللازوردية على نفسى، أكره نفسى بشدة، أكره كل من حولى أرفض الطعام، أرفض الجنس، أرفض العمل!

هل أنا مدمن؟

هل كنت أتخيل في مقتبل العمر ذلك؟!

كلا، ولكنى أومن بأن الانسان يولد، وهو يحمل قدره ومصيره، داخل خلاياه خريطته الجينية تحدد له المسار، وهذا القدر والمصير الجينى قد يكون كامنا سنوات طويلة حتى تجىء ظروف خارجية بيئية وضغوط الحياة فتفجره وتطلق سراحه، فينطلق الوحش الرابض لكى يؤدى مهمته، التى خلقه الله من أجلها.

لماذا لجأت لذلك؟

عندما أتفكر في الأمر أجد أن المدمنين جميعا يتحدون قدر الله! قد تكون الكلمة صادمة، ولكنى أعنيها تماما، فقدر الله وحكمته قد جعلت الألم هو قدر الإنسان، ولذلك من يتأمل كيمياء المخ

يجد أن الله قد خلق موانع للألم داخل العقل البشرى هى الاندورفينات والانكفالينات، وهى بمثابة مخدرات داخلية تهزأ بكل ما صنعه الإنسان، وما تناوله من مخدرات.
إذن فلسفة المخ البشرى تتمحور في تحقيق اللذة، وتقليل الألم توازن دقيق خلقه الرب، فالألم هو القاعدة ومضادات الألم مهمتها تحقيق سويعات قليلة من اللذة والسعادة بمثابة فترات من الراحة حتى لا ينهار الإنسان!
مأساتى أننى لم أدرك ذلك وقتها، وسعيت أن تكون حياتى لذة دائمة، وسعادة سرمدية، وهو ما لن يسمح لك الرب بأى حال من الأحوال في تحقيقه لأن ذلك ببساطة يخل بتوازن الكون، فلا نهار دائما ولا لذة دائمة، ولقد خلقنا الإنسان في كبد.
هذه الأوراق أكتبها إليكم لكى أحذر من يقرأها من العاقبة الوخيمة.

****

بعد العثور على تلك الأوراق بثلاثة أيام انتحر صاحبها بأن أطلق النار على نفسه.

وجودية

قصتنا الآن تدور بلا زمن، فلم يكن ساعتها ما يمكن أن نطلق عليه الزمن، ولا مكان لها فلم يكن هناك بعد مكان.
قوة مخيفة قاهرة تفرع عنها الوجود، وكتب لها الخلود لا يهم كيف وجدت، فهذا سؤال معدوم الجواب، ومن يسأله يعرض نفسه لأقسى حساب.
هذه القوة- أيا كانت طبيعتها- عمدت إلى خلق ما يمكن أن نطلق عليه اسم المادة، أى مجموعة من الذرات تمخضت عنها جزيئات بعضها متحرك نفخ فيه ما أطلق عليه لاحقا لفظ(روح)، وبعضها ساكن نعت بالجماد.
ما يحيرنا هو توصيف الروح ماهيتها، وصفها، وكيفيتها التى تجعلها تلتصق بالمادة، فتخلق فيها حركة وشعورا وعقلا يفكر في كل شيء، حتى في سرها السرمدى!
من فعل ذلك؟
ولماذا؟
ومتى؟
وكيف؟
وما هدفه؟!
والأهم ماذا تعنى الروح؟!
تسكن في جسد من الأجساد، فتخلق تفاعلات كيميائية تتطلب وقودا سائلا وعضويا، ولها عمر افتراضى تتداعى بعده، وتنتهى وترجع الجسد، الذى سكنت فيه سيرته الأولى.
مجموعة من الذرات.

تتلاقى الأرواح وتتناكح، وتصنع أرواحا جديدة تعمر مكانا صغيرا تافها بالقياس للمكان الأكبر الذى يسمى الكون، تتصارع فيما بينها على الوقود، فتدمر بعضها وتستعبد البعض الآخر، يقولون إن هناك قانونا نظم التعايش بين تلك الأرواح يطلق عليه اسم(الدين)، وضعه خالقها إلا أن المفارقة أن ذلك القانون لم يتم تفسيره على نحو حاسم وصارم، بل تشابكت تلك الأرواح في تفسيره، وتعدد التفسيرات خلق فيما بينها صراعا عظيما.

يقولون إن صانعها أراد لها أن تعبده وتدين له بالولاء!

يقولون إن بعضها سيتم انتخابه ليحظى بنعيم هائل، والبعض الآخر سيتم شيه في النار الموقدة.

فماذا عن بقية الكون؟

هل به شيء مماثل؟!

وهل خلق هذا الكون الهائل لأجل تلك الأرواح القليلة، التى تتواجد في تلك المساحة التافهة بالقياس لحجمه الهائل العظيم؟!!!

أسئلة مشروعة تبحث عن جواب.

ولم تجده.

ولن تجده.

أتجد كلامى هراء؟

فما هو اليقين إذن؟!

البوابات المحرمة

- (قف مكانك لا تتحرك)!
التفت في ذعر حائر حوله، وراعه أن فراغا هائلا على امتداد البصر يحيط به.
دائما يتردد ذلك الأمر في أذنيه لا يعلم مصدره أبدا تمنى لو تشف روحه لتكون قادرة على التواصل مع الكائنات النورانية المحيطة بها، ولكى يكون في استطاعتها اختراق ما وراء الجدران
مفعول به دوما ترك نفسه للريح وللتيار يتقاذفانه كيفما يشاءان، لم يكن لديه أبدا حرية اختيار طريقه، فما الفائدة من الاختيار بين بدائل تحدها خطوط حمر، وتحيط بها المتاريس والكمائن القاتلة!
التهم الألم روحه، ونخر الملل ما تبقى منها، لم يعد يشعر بمذاق لأى شيء، لم يعد للطعام أو للجنس أى صدى بداخله.
تكر الأيام وتتوالى الأعوام، وكل شيء باق على عهده، حاول أن يجرب شيئا جديدا كأن يغير مهنته أو يمارس التصعلك أو يحرق قلبه في أتون حب جديد، ولكنه أصيب بالذعر عندما أثبتت له الأحداث أن كل تلك الأشياء مجرد مسكنات مؤقتة.
ويوما ما سقط في نوم عميق، وتخايلت له مشاهد هائلة رجته رجا، ورأى نعيما خالدا يذهل الأبصار، تجاوز الكمائن والمتاريس، ودخل من بوابات النجاة، وسأل كل من قابله من الحراس عن طبيعة المكان وشروط البقاء ومن يحكمه، و.... و....!

مئات الأسئلة جالت بخاطره، لم يجد لها جوابا، أيقن بأن مأساته تكمن بالداخل، وأدرك أن النهاية هنا وأنه وأمثاله لا يشغلون بال المتواجدين بالمكان بتاتا.

قف مكانك لا تتحرك.

دوى الصوت مرة أخرى، وخيل إليه أن رنة قساوة أضيفت إليه، ولكنه لم يقف هذه المرة وصمم على المضى قدما، بعد أن أدرك أنه كان ضحية خدعة هائلة!

الرحلة

انتهيت من عملى مبكرا، ثم ذهبت إلى موقف سيارات الأجرة وسط ضجيج خانق، وانتشار مختلف أنواع المركبات، التى تمشى على عجل من ميكروباصات وتاكسيات وسيارات ملاكى ونصف نقل، وعربات الكارو التى يجرها حمار تارة أو حصان عند بعض الموسرين تارة اخرى، كل ذلك وسط حصار رهيب من الجهات الأربع بتلك المركبة الشيطانية، التى يطلق عليها اسم(التوكتوك)، فبدت كذباب يعف على الخلفية ويملأها بمزيد من القبح والتشوه.

اخترقت الزحام بمعجزة ما، دون أن يصدمنى أى شىء، ثم صعدت مكدودا للميكروباص الذى سيقلنى الى مدينتى.

كان الميكروباص به حوالى خمسة ركاب آخرين، واستلفت نظرى امرأة تحتضن طفلا صغيرا وتبكى في صمت اختلست النظر إليها، ثم أنصت لحوار دار بينها وبين صبى صغير يقعى بجوارها وفهمت أنها ذاهبة بحفيدها الصغير للمستشفى الجامعى، حيث شك الأطباء في إصابته بالتسمم ونصحوها بالتوجه لمركز السموم بالمدينة المجاورة.

زفرت في ضجر، وغطت سحابة من الكآبة الممزوجة بالمرارة سماء روحي، حيث يضيع عمرى على الأسفلت بلا طائل مشاهد مكررة جو مكرر أناس قذرون نمطيون مثلى، أينتهى العمر هكذا؟!

أمامي ساعة ونصف الساعة على الأقل لأذهب لعملى الثانى، وهكذا يوميا متى تنتهى تلك المهزلة؟!

استرعى ناظرى شابا ريفيا ضخما يرتدى جلبابا متسخا، ويعدو في هلع، ثم يفتح باب السيارة بجانب السائق صارخا فيه:
اطلع بسرعة يا أسطى هدفعلك أجرة الكراسى الفاضية!!
بدا الحبور على وجه السائق المسجل خطر، ولكنه امتثل للأمر، ولم يرد أن يدخل في جدل مع ذلك الشاب الريفى الساذج بسيط الحال وانطلق بالسيارة، وفجأة انطلق الشاب يتحدث في هاتفه، ثم لدهشتنا انفجر في البكاء، وأخذ ينهنه مخاطبا الشخص على الطرف الآخر:
صبرى مات يا عم باسم! رجعت من عنده من ساعتين يادوب استحميت واتصلوا بيا قالولى إنه مات مات يا عمى.
بدت نظرات التعاطف مع الشاب، وبدأت سيمفونية عصر الليمون من سيدتين شمطاوتين تجلسان بالخلف، وميزت عبارات من طراز(ياعينى يابنى)،(الله يصبر أهله).
وفجأة دوت صرخة من المرأة الجالسة أمامى، وهى تصرخ، وتشير لشابين يركبان دراجة نارية ويعتمران خوذتين على رأسيهما وسائق الدراجة يسير بسرعة جنونية:
بالراحة يا ابنى، والنبى يا أسطى تلحقه وتقوله بالراحة!
فرد عليها السائق قائلا:
-شباب طايش ابن قحبة شكله ناوى على موته!
صرخت به المرأة:
بعد الشر، ده ابنى يا أسطى وجاى يلحق ابنه اللى معايا ورايحة بيه المستشفى.
- معلش يا أمى مش قصدى إنه ابن قحبة، أنا قصدى إن سواقته بنت قحبة!

وفجأة ارتفع صراخ الشاب، الذى بجوار السائق، قائلا:
الله يرحمك يا صبرى يا اخويا، هنتيتم من بعدك، اجرى يا أسطى أبوس إيد أمك، اجرى بسرعة!
سيطر السائق على أعصابه قائلا:
أطير يعنى؟! هنوصل في معادنا إن شاء الله.
- أهوه قوله بالراحة يا أسطى!
مرقت الدراجة النارية بجوارنا مثيرة عاصفة من الغبار، فأطلقت في سرى سبة نابية.
- انتى عرفتى يا امااااه ه ه، صبرى مات يا امه، مش هنشوفه تانى يا امه متقوليش لنجلاء يا امه سامعة، ثم ارتجت العربة بصراخه:
- متقوليش لنجلاااااااااااااء.
: أهوه قوله بالراحة يا أسطى، قوله ان ابنه كويس ميجريش ليأذى روحه!
توقفت العربة عند إحدى الإشارات في منتصف الطريق، وأخو صبرى يسب ويلعن إشارات المرور والطريق والبلد بأكملها.
فوجئت بالمرأة بجانبى تطل برأسها عنوة من الشباك المفتوح بجانبى، وتصرخ في راكبى الدراجة النارية، قائلة:
- ابنك كويس يا حاتم متجريش يا ابنى!
نظرت للطفل الصغير على يديها، وقد بدا في نحو الثالثة من عمره، وأدركت من زرقة شفتيه وعلو تنفسه أنه يحتضر .
أضاءت الإشارة باللون الأخضر، فانطلقت السيارة، وانطلقت الدراجة النارية أمامنا بسرعتها القصوى، مثيرة أزيزا هائلا أشبه باختراق طائرة لسرعة الصوت، وفجأة انطلق السائق

يقهقه بشدة، وكأنه بذلك فتح بابا مغلقا ضربه الأخرون بأقدامهم، فانطلقت عاصفة من الضحك الهستيرى داخل العربة، وارتج على الشاب والمرأة، فلم يدريا ماذا يصنعان؟!!
حدث ما يشبه تمرد اجتماعى داخل العربة، ونظرت لجارى بجانبى، فوجدت نظرة عينيه مليئة بتعبير غريب يجمع بين الإثارة والمتعة والشبق.
داريت ابتسامة مشفقة، ونظرت للطريق، وقد بدا كيوم الحشر، وساهمت الشمس في تلك الملهاة بصب الحمم القاتلة على رؤوسنا.
ولم أدر بنفسى، إلا وارتفع صوتى، قائلا:
- يا بختك يا صبرى!

المنقذ

"حدثت بالفعل"

(ها قد جاءكم منقذكم).

اشرأبت الأعناق تتطلع إلي الرجل العظيم، وقد استوي علي صهوة جواده المطهم، وبدا عملاقا شديد الجاذبية في عباءته السوداء، وخفقت القلوب عندما نظر لهم نظرة حازمة، ثم رفع يده اليمني لأعلي، فإذا بها تشهر سيفا بتارا، ورفع يده اليسرى، فإذا بها تمسك بجوهرة عظيمة يخطف ضوؤها الأبصار.

ومرت سنوات وسنوات، وإذا بالسيف ينكسر والجوهرة تعود مجرد قطعة من الزجاج، وعاد القوم لسابق حالهم، وشحب ذكر أسطورة المنقذ، واحتلت مكانها بين رفوف الذكريات الساخرة، وفجأة اكفهرت السماء، وجاء علي القوم مواسم جدب قاحلة والتهمتهم الفاقة، واستعر بينهم القتل وسالت الدماء أنهارا، وانتشر المنسر يدمرون ويحرقون، وضج الخلق بالشكوي وانتابتهم أسمى آيات اليأس والقنوط.

وفجأة ظهر الرجل نفسه علي صهوة جواده، لم ينل منه الزمن، ولم تهزمه الأعوام، وارتقى الجبل ورفع يده اليمني، فإذا بها تشهرسيفا خشبيا خفقت له القلوب، ثم رفع يده اليسرى، فإذا بالجوهرة الزجاجية يخيل للقوم أنها تخطف أبصارهم، واختلط الحابل بالنابل، وتجمع القوم في حبور ولوحوا بأيديهم صارخين في جنون:

(ها قد جاءكم منقذكم)!

منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه؟
كان هذا صوت(عبد الحليم حافظ) يغنى رائعته الخالدة(أدهم الشرقاوى)، فسرح مع الأغنية قليلا وباطنه يرد قائلا:
هاتنى أنا، ومش هتندم أبدا!
قطع اندماجه مع اللحن صوت أحد العمال يقتحم عليه حجرته بالمستشفى قائلا:
- عايزينك بسرعة يا دكتور في العناية.
هرع مسرعا، وقد أنبأه قلبه بأنه على أعتاب مصيبة دانية، ولم يكذب خبرا، وحاول الحفاظ على هدوئه، وهو يدخل حجرة العناية، حتى لايستشعر أهالى المرضى بالخارج شيئا، فيزيد هياجهم، وفور دخوله شاهد الممرضات يقمن بإجراء تدليك صناعى للقلب لأحد المرضى، فشحب وجهه لأن ذلك المريض شاب بمقتبل العمر دخل المشفى بالأمس فقط، معانيا من التهاب رئوى حاد، ولكن يبدو أنه تطور بصورة مذهلة، فأفضى لفشل تنفسى أدى لتوقف قلبه عن العمل.
ألقى أوامره بسرعة، وهو يقوم بتدليك صدر المريض بعنف وتوتر، ثم دس أنبوبة حنجرية، وأوصله بجهاز التنفس الصناعى، وقام بإعطائه صدمات كهربية مع ما تيسر من جميع الأدوية المنشطة لعضلة القلب، واستمر العمل قرابة الساعة، إلا أن المريض لم يستجب بتاتا، واتسعت حدقتاه كناية عن مفارقة الروح لجسده.

ارتمى على مقعد قريب منهكا، ثم نظر إلى الممرضات قائلا بحزم:
انزعوا عنه كل شيء، وسأقوم بإبلاغ أهله بخبر وفاته.
- نبلغ الأمن يا دكتور؟
: لا داعى .
وقام من فوره، وانتقى رجلا كبيرا يبدو عليه التعقل من وسط أقربائه المتحفزين، الذين يبدو أنهم شعروا بأن الجو يحمل شحنات كهربائية ليست على ما يرام، وأن اللحظة التى يخشونها حانت!
- شد حيلك يا حاج ابنكم توفاه الله.
لطم الرجل على وجهه، وأمسك بتلابيب الطبيب صارخا في هياج:
- بتقول إيه؟ مش ممكن ده يحصل، ده كان داخل على رجليه يا ولاد الكلب!
خلص ملابسه من يد الرجل بمعجزة، قائلا في لهجة حملت قدرا غير منكور من التوتر: أمر الله يا حاج، وطالما دخل العناية يبقى احتمالات الوفاه كبيرة !
ارتمى الرجل أرضا، والتف العشرات من أقربائه حوله، فتراجع الطبيب للخلف محتميا بأفراد الأمن القليلين، الذين بدا عليهم الخوف.
كان يواجه هذا الموقف كثيرا، ولا يمر عليه أسبوع على سبيل المثال إلا ويموت معه مريض أو أكثر نظرا لطبيعة تخصصه الدقيق، ومع اعتياده لمثل هذه الأحداث، إلا أن بعضها لم يكن يمر إلا بمشاجرة ضخمة أدت في بعض الأحيان لعراك بالأيدى

وإطلاق للنار داخل المشفى، إلا أن الورقة الأخيرة، التى تنزع فتيل المشاجرات في النهاية كان يلقيها أمام الأهالى بالتهديد بنقل جثة المتوفى للمشرحة، ونظرا للطبيعة المثقفة، التى تميز أفراد الشعب الكادح، فقد كانوا يتصورون أنهم بهذا سيقتلون الميت مرة أخرى بتشريح جسده، فيرضخون للأمر الواقع، ويسحبون الجثة في صمت وينصرفون.

انتهت نوبتجيته، فغادر المشفى واستقل سيارته، ولم يكن المشفى يبعد عن عيادته أكثر من عشرة كيلومترات قطعها في ساعة ونصف الساعة، نظرا للازدحام الهائل ليلا ونهارا" ملعون أبو دى بلد"!

نزل من سيارته، ودخل عيادته وهو يشعر بقهر هائل، وعدم رغبة في العمل، وكان متعبا بشدة جراء الأدرينالين، الذى غزا دمه جراء الأحداث العصيبة، التى لاقاها في يومه.

جلس في كآبة، وأخذ يوقع الكشف الطبى على مرضاه بملل شديد، ورغبة في الخلاص.

اكتشف في ذعر أن حياته تسير على تلك الوتيرة الروتينية، منذ عشر سنوات من المشفى للعيادة للمنزل والمقابل يكفيه ويكفى أسرته بالكاد ضاع شبابه في حجرات الرعاية بين الموتى والمرضى طاقة سلبية هائلة يتلقاها منذ أزمنة لا يسمع سوى أنات المرضى، وأخبار القيء والإسهال والموت، اصطبغت روحه بكآبة سرمدية انفصل عن عائلته رويدا رويدا، وكم من حفل عرس لم يحضره وكم من متوف لم يشهد عزاءه بسبب انهماكه الرهيب في العمل.

ويوما ما سأل نفسه:

لماذا أحيا؟!
بقى السؤال معلقا في فضاء حياته بلا جواب حقيقى.
وبلا أمل!

الصاعق والصاعقة

يدوى صوت انفجار صغير بفعل صاعق الناموس، فيتباين صداه في رؤوس السكارى، فيعتقد بعضهم لوهلة من الزمن أن انتحاريا سنيا فجر نفسه داخل(البار) تنفيذا لأوامر دينه، التى تحرم شرب الخمر، بينما ترتسم ابتسامة ساخرة على شفاه رجل آخر، وقد ذكره الصوت بغازات بطن امرأته أثناء نومها.
لم تكن أول مرة يرتاد فيها ذلك البار الصغير الواقع بمنطقة وسط القاهرة، يحفظ وجوه رواده عن ظهر قلب، ولكن ميله للصمت لم يساعده على إقامة علاقات وطيدة مع رواده.
كان يتأملهم ويتأمل سحنهم الباردة الخالية من أى تعبير، ورغم أنهم يتضاحكون، ولكنه يلمح مرارة وراء الضحكات، ويوما ما سأل جاره قائلا:
لماذا تشرب؟
فتفكر الرجل الستينى قليلا، ثم قال:
-صدقنى الامتناع عن الشراب هو ما يحتاج لتفسير!
صدمته إجابة الرجل بشدة وتأمل فيها، فوجد العجب، هؤلاء يشربون وأنت مثلهم لتغيب عقلك إذن، فعقلك هو العدو ولماذا؟
لأنه تشبع بأفكار ومسلمات لم يجد صداها على أرض الواقع !
- فليجتاح العالم الجنون!
هتف بها وسط صمت رهيب، ثم انفجرت ضحكات مستهزئة، ولكنه وقف كأنه يلقى خطبة وسط جموع السكارى قائلا:
- كيف أتى هتلر،وكيف أتى محمد على، وكيف جاء عبد الناصر، إن لم يكن محركهم الرئيسى هو الجنون؟!

كيف انحنت لهم الملايين؟ كيف أيها البهائم الساهمة ألا تتفكرون؟!
أتعتقدون أن الدنيا مال وبنون فقط، أنتم كلاب روتينيون مملون تنقمون على أوضاعكم ولكنكم لا تحاولون تغييرها، طوبى للمختلفين حتى ولو كانوا انتحاريين!
تصاعدت صيحات الغضب، ولكنه صرخ بحزم قائلا:
- مبدأهم صحيح ومنتهاهم خطأ!
رفعوا جميعا كؤوسهم، وتصاعدت رائحة الكحول، وغطى صوت أم كلثوم في الخلفية تشدو برائعتها الأطلال، فبكى قلبه.

(؟؟؟)

مرت من أمامه فغافلها، واقتطع لنفسه قطعة من ثوبها، فلم تهتم حتى بالنظر لما أصابها، ومرت على آخر وآخر وآخر، وكل منهم يفعل بها المثل، حتى لم يتبق عليها ما يستر العورة، ومرت على آخر فسال لعابه، ولم يتركها حتى أصاب منها شهوة، كل ذلك وهى تضحك، فقد اعتادت مثل تلك الأمور، وواصلت طريقها، ومرت على قوم عندما نظروا إليها أشاحوا بوجوههم، وقد استنكروا ما أصابها وحاولوا سترها، ولكنها تمنعت وأصابها هياج وغضب عظيمين، لأنها رأت أنهم قد يعطلون مسيرتها في الطريق المرسوم بدقة، ولم تلتفت حتى وراءها لترى المشاجرة العنيفة بين هؤلاء القوم، وبين من جعلوها عارية مفلسة، ونظرت وراءها مرة واحدة وتنهدت في ارتياح، عندما رأت نهرا من الدم يصبغ الطريق خلفها وواصلت السير في برود!

العيد

أول أيام العيد، حيث الفرح إجبارى والشقاء لا مكان له اليوم.
تأمل وجهه في المرآة، حيث بدا على قدر من الوسامة، وتأمل ثيابه الجديدة، التي اشتراها مؤخرا، وكلفته عمل شهرين كاملين في ورشته المتواضعة، وخرج من منزله لا يلوي على شئ، قادته قدماه إلى كورنيش وسط البلد، حيث الفتيان والفتيات يمارسون العشق والغرام عيونهم تطفح بالسعادة، وتأمل القارب النيلى، حيث يتراقص الجميع على صفحة النيل، وبدا وكأن الدنيا اليوم ترتدى ملابس زاهية مشجرة، كالتي يرتديها دوما ((شعبان عبد الرحيم).
حاول التحرش بإحدى الفتيات، فلم ينل سوى السباب مع الكثير من نظرات الاشمئزاز، وبمرور الوقت تتضاءل فرحته شيئا فشيئا، وتحل محلها مرارة مكبوتة لا يستطيع حتى التعبير عنها
لفت نظره شاب في مثل عمره يجلس مع فتاة جميلة، تتعانق يداهما في شوق، يتناولان حمص الشام وينظران إلى صفحة النيل الرائق.
فيما مضى كان ذلك المشهد يثير في نفسه شجنا ولهفة ويتولد بداخله أمل أنه سيجلس تلك الجلسة في يوم من الأيام، وفجأة يتذكر الأسطى (سيد)، صاحب الورشة وصفعاته المؤلمة، يتذكر والده القعيد، مدمن المخدرات، الذى يستولى على نقوده كل أسبوع، يتذكر أمه التى تعمل خادمة فيتأجل الأمل لإشعار آخر.
أما اليوم، فلا يعلم ماذا دهاه، نظر للشاب والفتاة نظرات مِلأها الحقد، ثم قام من جلسته واشترى حمص الشام، وأخذ يلوكه في فمه بلا حماس.

لماذا لا يشعر مثلهم بالسعادة؟!

أندورفين

تمر الأيام سريعا بلا أى بارقة أمل، ويستولى عليه اليأس والسأم، ماذا جرى؟ وماذايجرى؟وما الهدف من حياتنا الدنيا؟ لا يتخيل أو يدخل عقله أن الله خلق البشر فقط لمجرد عبادته، فالهنا ليس مصابا بعقدة نقص بشرية أو يستهويه التملق والنفاق فلماذا خلقنا إذن؟ وما المعنى؟

أحيانا يخيل إليه أن الحياة فرصة من الفرص، انتخاب لعناصر معينة في الكون لكى تزرع فيها الروح، ولكن أى دور تؤديه وكيف؟

وكيف يتجنب التفكير في الموت؟ وهو يشعر باقترابه، ويراه بحكم مهنته اللعينة كل يوم، آه العمر قصير والطموحات هائلة، وجزء كبير من أعمارنا يضيع في القلق اللا محدود على المستقبل!

: وبعدين يا محمود؟

قالها لصديقه دكتور(محمود سالم)، وهم جلوس في أمسية شتوية باردة على المقهى، ورد عليه صديقه، قائلا:

ـ ولا قبلين يا صديقى، ما هى إلا حياتنا الدنيا نعيشها، كما عاشها آبانا وأجدادنا.

رمقه بنظرة مستهجنة، وقال له:

ما المعنى ياصديقى؟ ليس الأمر رفاهية أو تأمل شخصى، بل هى أزمة نفسية عنيفة أمر بها، ويمر بها كثيرون غيرى، العمر يجرى بسرعة رهيبة لدرجة أنه يمكنك أن تتخيل ما قديحدث لك بعد عشر سنوات مثلا ـإن عشناـ فهل هذه أشراط

وعلامات يوم القيامة؟ جريان الزمان بتلك الصورة الجهنمية، ما أيامى إلا يوما واحدا متشابها!
كان محمود ينظر له بسخرية، وبابتسامة مشفقة، ورد عليه قائلا:
(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون). صدق الله العظيم.
ـ وهل أنت نفسك مقتنع بذلك؟ ليست كل حكمة ربانية أخبر بها عباده، هناك أمور لم تظهر للوجود بعد، ولكى تفهم ما أعنيه تخيل أن تقوم بصنع آلة أو لعبة اطفال تضغط على الزر، فتقول للأبد بصوت آلى:(يا حلاوتك يا جمالك خليت للحلوين إيه)!
انفجر محمود ضاحكا وضحك معه، وقال محمود:
حذار أن تتمادى! الله سبحانه وتعالى قال ذلك في محكم آياته
ـ بركاتك يا شيخ محمود.
وأشعل سيجارة حشيش، وعزم على صديقه بواحدة، فرفض قائلا:
ـ إنت عارف إنى مبشربش يا رفيق السوء.
ـ ليس شرب الحشيش محتاجا إلى تبريرات أو تأويلات، بل الامتناع عنه هو ما يحتاج الى مبرر ومبرر مقنع.
: لن تفهم أبدا يا صديقى، فقد سقطت في وحل الإدمان اللعين على الرغم من أن الله سبحانه، وتعالى قد خلق بداخل الإنسان مخدراته الداخلية!
ـ أكيد انت اتسطلت، مش انا مخدرات داخلية؟ هههههه!
: انت بتضحك؟! الموضوع حقيقى وعلمى، أكيد سمعت عن الاندورفين (endorphins)؟

ـ مش ده الهورمون اللى المخ بيفرزه أثناء الألم الشديد أو لحظة الموت؟ إيه علاقته يا حودة في اللى احنا بنتكلم فيه؟
: له علاقة وثيقة يا أهبل طبعا! انت بتشرب مخدرات ليه؟
أقول لسعادتك عشان تتبسط أو تحس بنشوة، أو حتى تهرب من الواقع القذر اللى كلنا بنعيشه أو عشان تحس، ولو بلمحة بسيطة من السعادة وسط الكآبة اللى مسيطرة على حياتك، ربنا سبحانه وتعالى خلق في أجسامنا بقى مخدرات، أيوه مخدرات حقيقية، الاندورفين اللى انا بكلمك عليه ده مفعوله أقوى من المورفين مليون مرة، وده كلام حقيقى بلا أدنى مبالغة، تعرف إن العلم اخترع جهاز يساعد المخ على تنشيط إفراز الاندورفين والتحكم في كميته اللى بتوصل دمك وإغراقك في حالة طبيعية من النشوة والسعادة. تعرف إن التقنية العلمية دى موجودة في أمريكا حاليا، وجربوها في أبحاث وتجارب علمية، وانا اطلعت عليها بواقع شغلى كطبيب تخدير عارف التقنية دى الأمريكان قدروا إنهم يقوموا بعمليات جراحية كاملة بدون استعمال عقاقير التخدير المعتادة أو استعمال المورفين الخارجى اللى بنستعمله في العمليات، وكملوا عملياتهم دى بواسطة إطلاق الاندورفين من المخ؟
ـ اشرحلى اكتر يامحمود، واهو ادينا بنتسلى، أتاريك عندك دولاب مخدرات في دماغك يا مكيفة!
فضحك محمود قائلا:
هشرحلك أكتر يا صديقى التعس، خد عندك تقدر توصفلى شعورك لما طلعت الأول في الإعدادية أو الثانوية العامة ؟ تقدر

توصفلى إحساسك إيه مع أول شرارة حب في حياتك ؟ مع أول مرتب تقبضه وتحس بإنك بقيت راجل؟!
الإحساس الرهيب ده بفعل الاندورفين أو مخدراتك الداخلية! لو انت بقى يا ابوجهل خدت مليون سيجارة حشيش، وللا شربتلك ألفين كاس من منقوع البراطيش اللى بتبلبعه في الغرز والمواخير اللى بتروحها، وللا خدتلك كام شريط ترامادول، أو بلبعت استروكس وللا فودو ولا مسحوق جماجم، حتى تقدر تحس بيه تانى؟!
أبدا تحب اقولك إن البشرية كلها بتتكيف، ومدمنة مخدرات حتى الناس اللى مبتشربش مخدرات وعمرك مشفتها بتدخن ولو سيجارة هما كمان مدمنين مخدرات، قوللى ازاى؟
: ازاى يا كبير؟
- اقولك أنا، واحد زيك بياخد مخدراته ومزاجه عن طريق مصدر خارجى سواء سيجارة أو برشامة، فمخدراته الداخلية أو الاندورفينات توقف المخ عن إنتاجها لأنه استعاض عنها بمصدر خارجى، ولو بصورة مشوهة، لكن أنا مثلا أو غيرى عندنا إحساس قوى بمخدراتنا الداخلية وأدمناها، وبقت كيف عندنا منقدرش نستغنى عنه، مسألتش نفسك ليه فيه بنى آدمين عندهم إصرار، وإصرار عجيب كمان على المضى قدما في تصرفات تبدو للعامة إنها سخيفة؟ خد عندك مثلا رجل الأعمال الخارج من السجن(أمجد عز) الناس مستغربة إنه مصر على ترشيح نفسه في الانتخابات البرلمانية- ولعب دوره القديم على الرغم من إنه معاه فلوس لو قعد يحرق فيها لآخر يوم في عمره مش هتخلص عارف ليه؟ لانه مدمن اندورفين أو مخدرات

داخلية الاندورفين بتاعه بيطلع لما يلاقى نفسه في مجلس الشعب بيأمر وينهى بمزاجه، فبقى مدمن سلطة ونفوذ لأن السلطة والنفوذ هى وسيلته لإفراز الاندورفين اللى بيكيفه وميقدرش يستغنى عنه، فاكر لما سألتنى عن الدكتور(محمد حسن)، وليه مبيسيبش عيادته تقريبا، وشغال فيها ليل نهار، وقولتلى إنه مش محتاج فلوس، وليه مبيتمتعشى بفلوسه ويسافر بره، ويفسح نفسه وعياله؟!

أقولك أنا، لأنه مبيلاقيش نفسه غير في عيادته وشغله،والاندورفين بتاعه مبيطلعش غير في وقت الشغل، فواحد زى ده لو خرج وسافر وقعد يصرف في فلوسه هيحس بالكآبة والضياع، خد عندك انا مثلا معظم الوقت مقضيه في القصر العينى وسط أجهزة العناية وحجرات العمليات، على الرغم من إن منصبى يتيح لى قدر كبير من الراحة، واقدر ارمى الحمل على الدكاترة الأصغر منى.

عارف انا بعمل كده ليه؟ لأن الاندورفين بتاعى بيطلع لما بتنطط على الأقل منى، ولما اقعد اشخط في الدكاترة والتمريض، لما الاقى دكتور فاشل زيك مش فاهم حاجة بيضيع المرضى بتوعه، وانا لما اتدخل وانقذ حياتهم الاندورفين يطلع يشعشع في دماغى يخلينى ولا شهريار في ألف ليلة وليلة، وقس على ذلك كل الظواهر السلوكية التى تشعر بغرابتها، هناك بشر هوايتهم جمع المال، وآخرون يستهويهم الشر والعنف، ويجدون مخدراتهم الداخلية في البلطجة على غيرهم من البشر واستعبادهم.

نظر له بلا اكتراث، متسائلا:

ولكن هذا لا يفسر خلق الإنسان والمعنى من وجوده، لا أعتقد أن الاندورفين الإلهى مقصور على عبادة الإنس والجن له وتسبيحهم بحمده في العشى والإبكار!
نظر له نظرة صارمة، قائلا:
لا تجدف يا أحمق! ونفذ أوامر الرب فقط، الرب قال إنه خلقك لتعبده فلتعبده كما أراد.
وماذا بعد؟
: خلق إلى الجنة وخلق إلى النار.
وها قد عدنا لنقطة البداية مرة أخرى!

تعريف بالكاتب:

دكتور محمد شوقى مهدى، طبيب شاب، ولد فى القاهرة، حاصل على بكالوريوس الطب والجراحة، ودراسات عليا فى الأمراض الصدرية والعناية المركزة.
اشتغل بالعمل السياسى فى عدة أحزاب وحركات ناصرية ويسارية، له محاولات قصصية وشعرية عديدة، ومقالات سياسية وفنية بوسائل التواصل الاجتماعى، كما نشرت قصصه عدة صحف مصرية وعربية.

الفهرس

إهداء
مقدمة
تصدير
النهاية
القطيع
حياة مملة
المومس الفاضلة
الحارة
الممر
الشعاع المقدس
قصة قصيرة جدًا.. جدًا
خواطر التبول
الحلم
الصدمة
الانفجار
ما وراء الغيوم
الوردة البيضاء
فراسة
ثورة
العدم
الصفعة
المحكمة
قال الحكيم
مصر عام ٢٠٣٠
الجدار
وهابستان

المثلث
أن تكون محمد المصري
وجودية
البوابات المحرمة
الرحلة
المنقذ
من مذكرات طبيب إنعاش
الصاعق والصاعقة
؟؟؟
العيد
أندورفين
تعريف بالكاتب

شكر وتقدير

لكل من شجعنى على النشر، واتخاذ تلك الخطوة الرهيبة.
عمى الغالى سعيد مهدى، وابن عمى الغالى دكتور محمد سعيد، وأصدقائى: هانى ماضى، والمعلم سيد حسن، ودكتور مجدى غلاب، ودكتور وليد ناصف.
وشكر خاص للشاعر حسين جعفر، مراجع الكتاب.
كما أشكر الناشر المناضل محمد هاشم لإتاحته فرصة نشر مجموعتي الأولى من نافذته العريقة (ميريت).